اقرأ

يحيى حقى

دماء وطين

دار المعارف

اقرأ

[١٥٣]

دماء وطين

يحيى حقى

دماء وطين

الطبعة الثانية

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

لا أزال أذكر كيف كانت حارتنا الضائعة وسط القاهرة تستيقظ فجأة ذات صباح من سباتها وغفلتها على نداء غريب يتردد فى أرجائها ، لا نسمعه إلا مرة كل عام ، ولا نفهم معناه :

عوف الله . . عوف الله . .

— « يزعم البعض أنه تحريف لاسم أوفيليا إلهة الماء عند الإغريق » — فنعلم أن النيل قد وفى بوعده وفاض بالخير والبركات على الوادى السعيد. وتنبعث فينا نحن صبية المدينة — ولا شأن لنا بالزرع والرى — هزة فرح لا نعرف سببها ، ونجرى إلى الجسور نحتفل بهذا الموج الأحمر الداكن الذى يشع بالحياة والقوة ، يتدفق فى خيلاء وعنف إلى البحر البعيد .

ويتقدم العمر ، ويزول سحر الأساطير ، وينتعش الإحساس الفطرى ، فإذا بنا — مع ذلك — كلما وقفنا على الجسور وتطلعنا إلى الجنوب ، أحسسنا بأن أرواحاً وقوى مبهمة تهب علينا مع مياه النيل . وكنا نجد تفسيرها إذا مررنا — والليل قد مضى أكثره — على عمارة تريد أن تقوم ، ووصلت إلى آذاننا تلك المقطوعات الحزينة العميقة ، تنبعث من بين أكوام الحجارة حيث يضطجع الفعلة — وجلهم من أبناء

الصعيد — حول النار يصطلون ، إذا كان الوقت شتاءً ، أو يتنسمون الهواء العليل ، إذا كان صيفاً ، ويرددون أغانى لهم يتذاكرون بها وطنهم وأهلهم وأحبابهم . وهم ساهرون رغم تعب النهار ، كأنما تؤرقهم الذكرى .

هؤلاء هم الصعايدة : قوم جاءوا من بلاد نائية ، حرها شديد ، وزرعها قليل ، تغمر مياه النيل أراضيهم — الحياض — كل عام . فيبطل العمل ، ويخلو الاجتماع والسمر على جسور النيل . ثم تتخطفهم الهجرة إلى القاهرة والإسكندرية وغيرهما من مدن مصر . فيترك الأب أبناءه وزوجه ، والابن أمه وأباه ، والعاشق حبيبته ، طلباً للقمة العيش . . حياة محفوفة بالشقاء والترحال والفراق ، تلهب إحساسهم وتذكى عواطفهم . ومن ثم كان لأهل الصعيد روح خاصة ذات عمق وجمال وفن أصيل .

ومن نبل هؤلاء القوم أنهم فى عز كفاحهم للحياة لا ينسون الغناء ، تتفجر قلوبهم بأغان ساذجة صادقة ، تمثل بلادهم وسحرها وفقرها ، وأبراج الحمام البرى المنتشرة فيها ، والنخل باسقات ، والنيل عند فيضانه يفصل القرى فتصبح كالجزر العائمة ، ووادیه الضيق تحده تلال تقبض عليه قبضة فكى كلب صيد على الفريسة . . . تتحدث أغانيهم كيف يلجأون لهذه التلال هرباً من رجال الحكومة ، فتتعقبهم الهجانة

السودانيون . . كما تتحدث عن حماستهم للأخذ بالثأر ، والدفاع عن العرض ، وشوقهم وحنينهم للأهل والوطن والأحباب ، وحسرتهم على أيام الحياة تنقضى فى تنقل وفراق . وتنشد هذه المقطوعات بأنغام حزينة كلها أنين يلائم معانيها بساطةً وحرارة ولوعة .

ولا تخلو عربات الدرجة الثالثة فى قطار الصعيد من طبلة تتناقلها الأيدى حتى تستقر فى يد خبير ولهان ، فيخيل إليك أن الوادى كله يتغنى معه ، ويتلقف أناشيده ، وأنها تنزل إلى ثراه كالحب وقت البذر ، فتكتب لها حياة متجددة أبداً لا تفنى . . قد أصبح للصعايدة قطار — أبو عجل حديد — يعرف باسمهم ويذكر فى أغانيهم ، هو القطار الذى يبرح الإسكندرية فى منتصف الليل ليلحق راكبه أول قطار يقوم فى الصباح المبكر من القاهرة للصعيد . وإذا ذكرت الإسكندرية ذكر معها سيدى مرسى أبو العباس صاحب المقام العالى ، وله فى قلوب الصعايدة إجلال أيما إجلال .

وهناك فى قلب الصعيد النائى عند «البلينا» بلدة صغيرة يصل إليها قاصدها بعد أن يعبر النيل من بر السكة الحديدية ، هى بلدة مزاتة ، موطن الراقصة ناعسة . والفن الصعيدى مدين لهذه البلدة وتلك الراقصة . فلا تكاد تخلو مقطوعة من ذكر مزاتة

وناعسة . فمزاتة وناعسة رمز الوطن والأهل والأحباب وأيام الهناء . وها هى بعض مختارات من الأغانى الصعيدية[١] :

(١)

يا باجور الساعة اتناشر يا مقبل ع الصعيد ناري يابوى
سلم لى ع الحبايب ومحمد ولدى »
يا جريد النخل العالى طاطى ورد السلام »
سلم لى ع الحبايب آيا غايب لك زمان »
تحسبنى اليوم نسيتك دا البعد اللى جفاك »
خايف أروح مزاته ناعسة تتقل على »
ضمينى وأنا أضمك ليل الشقا طويل »
شمس العصارى غابت يا للى بلادك بعيد »
فرش الحمام على الميه فرحوا له الصيادين »

(٢)

خاين يا زمانى وديت حبيبى فين
ولا جواب جانى شيعت له جوابين
سوده وعاجبانى عيون حبيبى يا ناس
نجم السما العالى يشهد علينا الليل
ولا كان على بالى يوم السفر يا بنات
يابو مقام عالى مرسى يابو العباس

(١) هذه الأغانى من وحى صديقى الأستاذ محمد عصمت .

(٣)

عدينى يا معـــداوى عدينى أنا
يد السقالة يا ريس معرفش العوم يا عم أنا
عدينى أنا ومحبوبى والأجره على أنا
محبوبى فى البر التانى عنـــده مونة سنه
قدام بيت اللى بحبه شجره وضله ومعنى وهوا
يا رايح على مزاته حود ع البلينا
تلقى بنات عبد الله ناصبين السلطنـــه
وعمار يا بو حـــادى وزمان البلينـــا
ياللى حبيت ولا طلتش صعبـــان على أنا
ومدام خالى السوابق على إيه تنذرنى ياعمده أنا
ناعسة نزلت فى القارب ما تنسم ساعه يا هوا !

* * *

وأخيراً نورد تلك المقطوعة التى خلدها الصعايدة الذين جندتهم « السلطة » العسكرية الانجليزية بأنواع من القسر والجبروت فى الحرب العالمية الأولى ، زاعمة أنهم متطوعون . وكان سيد درويش يقدرها ويقول عنها : «الطبيعة فوق الفن» ، ويغنى منها البيتين المشهورين ويرددهما وهو يبكى ، يرحمه الله . . .

على يوم ما رغبونى لم كان لى مرام
وعـــطونى الثلثايه وقالوا لى كتبوك جـــال
وانا كل ما أقول التوبه ترمينى المقـــادير

وعـــد ومكتوب على ومسطر ع الجبين
يا بهيـــه خبرينى عالليى قتل يا سين
قتـــلوه السودانيـــه من فوق ضهـــر الهجين
وبهيـــه فى المحاكم شدت واحـــد وكيـــل
احكم بالعدل يا قاضى قدامك مظـــاليم
عوج الطربوش على شقه وحكم بأربع سنـــين
سنتين فى السجن العالى وسنتين فى الزنازين

البوسطجى

١ ــ ابلاغ ورا بلاغ

١

دخل حسنى أفندى مكتبه : خطوته سريعة ، جبينه معقد . وأخذ ــ أى خطف ــ البلاغ من يد الغفير ، وانفجرت من بين شفتيه لعنة ضاع لفظها طىّ حدّتها . . يستدعيه المأمور على عجل ، فيقوم من وسط عشائه مضطراً ، بعد نهار قضاه على ظهر الحمار .

وأخذ الغفير يراقب عينى (حضرة المعاون) تجرى إثر السطر ، وتنثنى تلاحق تاليه ، فإذا به يرى التقطيبة تخف ، وزالت عن الخدين خطوط قليلة ردت التكشيرة ابتسامة يطل . . وقال الغفير فى نفسه وهو يبلع ريقه :

ــ الحكام كده . . يا ما أسرع غضبهم . . ياما أسرع رضاهم !

واستراح حسنى فى جلسته ، واستقام ظهره ، وأمسك البلاغ بين يديه ، وباعده يتفرج برؤيته . ثم بدأ يتلوه على نفسه فى تمتمة غير مسموعة . كلما نطق بكلمتين رد عليهما بهزة

من رأسه ، تصحبهما تلعيبة من حاجبيه ، وشاركتهما رجله اليمنى ، فهى — من تحت المكتب — تقرظ كل تلعيبة بنقرة . . وختم تعليقاته والبلاغ بضحكة أمالت رأسه ، تخرج من وسط الحلق ، ثم إلى الأنف ، وقد تعود إلى الحلق ، ضحكة فاحشة ، خليعة غجرية .

وكان الغفير قد فهم منذ زمن أن حضرة المعاون : « عما يتمسخر على البلاغ . ما هو العمدة مش ولد مدارس » . ومال بقلبه ضد العمدة « بلدياته » مع المعاون الغريب ، رغم « شخطه ونطره » . وابتسم هو أيضاً ابتسامة ذليلة كلها تملق :

— دا البلاغ اللى ح تقوم القيامة عشانه ؟ داهية تسم القفا يا سيدى .

ضحكة أخرى أخف . وأخذ يعيد القراءة بصوت مرتفع : فيها أنه يتذوق السخرية من جديد ، وفيها أنه يتفكه بصبها كلها على رأس الغفير الواقف أمامه كاللوح ، ويشمله بتهكمه لتكون لذته مزدوجة :

« ساعة تاريخه بمرورى من بحرى ، حسب أوامر سعادة البيك المأمور ، ما أشعر إلا ورأيت سلمان عبد العال ، فما كان منه إلا أنه أخبرنى أنه سمع بالإشاعة أن ناظر بوسطة مكتب الناحية بلدنا ، عباس أفندى حسين ، اتهجم على

محروسة بنت الشيخ مبارك حال كونها رايحة تشترى متر جاز من دكان الشيخ رمضان ، وأن المذكور أعلاه اتهجم على فرحانة بنت المعلم رضوان بعد صلاة المغرب، فانسرعت وجرت منه ، لا سيما أنه فى الطريق العمومى . وبسؤالهم لم واحد منهم اشتكا خوفاً من القولة وكلام الناس . وللأهمية الجميع مرسلين للمركز أفندم . . .

عمدة كوم النحل
عبد السميع وهدان

حاشيه ـ عباس حسين أفندى عاصى على أوامر الحكومة وشيخ الخفر ، ولم رضى ينزل معاه

عمدة كوم النحل
عبد السميع وهدان

لم تكن فصاحة البلاغ — ففيه « لا سيما » — هى وحدها سبب ضحك حسنى . بل لم يستطع — وهو المعاون القديم فى الكار — أن يتمالك نفسه إزاء مكر العمد ، يبدو فى مثل جديد . ولكنه هذه المرة مكر صبيانى يحاول أن يخبئه عبد السميع وهدان بين السطور .

فى أول البلاغ (أوامر سعادة البيك المأمور) وفى آخره (للأهمية) . . . رجل خدام حكومة يخلص نفسه من المسئولية ، ليس له يد ولا إصبع . ولكن أين من يقرأ هذا البلاغ ولا يفهم أن بين العمدة و (ناظر بوسطة الناحية بلدنا) حزازات ، أو بتعبير العمدة نفسه : « حظاظات ، وخصومات » . . . ليس فى البلاغ شكوى من أحد المجنى عليهم . . والمرسلون للمركز . والوقت ليل ، شهود قد يكونون غير متطوعين . . وحسنى ليس فى حاجة لهذا البلاغ ليفهم ما بين الرجلين من خصومة . فهو يعلم أن ناظر البريد يسكن أحد منازل العمدة . وبسبب ما شب بينهما حول هذا المنزل من جدل كله عناد . . العمدة يصر على أن يخرج من داره هذا « الأجرى » الرحال . ليس له عشيرة تلمه ولا بلد يقره . ماهيته ؟ يدفع مثلها حلواناً للصراف ولا يبالى . والموظف المتعاظم ببذلته وطربوشه . وسلطة الوظيفة وراءه ، يتكبر على هذا الفلاح الجاهل . الجلف — مكانه وراء الجاموسة لا بين الناس . . يجب أن ينهزم أمام الحكومة . .

ولم يكن حسنى نسى بعد كيف جاءه العمدة من قبل شهر يشكو عباس ويطلب إخراجه من المنزل على عجل . ولمح له أنه يستطيع — بفضل الوسائط — أن ينقل خصمه من

البلد كلها ، لا أن يخرجه من الدار فحسب . فوعده حسنى بكلمتين حلوتين ، أن ينفذ له غرضه ، وهو ينوى أن يصلح ما بينهما . وانتهز فرصة وجوده فى كوم النحل بعد يومين ، وعرج فى طريقه من المحطة إلى البلد على مكتب البريد . ولم يكن رأى هذا الشاب العنيد من قبل ، ولم يشأ أن يستدعيه إلى دوار العمدة ، حتى لا تكون « الكرامة » سبباً للرفض . . وقف حسنى أمام الشباك ، وأمسك بأحد أعمدته ، وأطل من بين عارضتيين :

— يا عباس أفندى !

فواجهته رأس على كتفين تقبع فوقهما كاليافطة كلمة (بوستة) خيطت من قماش أصفر بخط قبيح . . ورأى وجهاً مطاوَلاً يخرج منه بوضوح أنف دقيق ، فتحتاه ضيقتان ، تحتهما شفتان رقيقتان . فوق الجبين شعر أسود فاحم ، زاد إهمال صاحبه له من جمال حلقاته المشتبكة .

— يا عباس أفندى ! كنت عاوز أكلمك فى كلمة صغيرة .

— أفندم .

— مش من صالحك تخانق العمدة ، أنت راجل منا وعلينا . . أنت أخونا وأنا أقدم منك وأفهم الراجل دا . . . دار اجل طيب لسه عيل . الواحد يضحك عليه بكلمتين

يبقى زى العسل . يهب يهب و بعدين ينطفى

— دا لسانه زفر . . .

— لا . . . لا . . أنت غلطان

واستمر الكلام بين الوجهين ، ينقلان كل حين وآخر مكانهما بين قضبان النافذة . ثم لان الحديث ، واختلطت أعمدة الحديد بالابتسامات والضحكات ، ومد عباس يده فصافحه المعاون . . ولما عاد إلى المركز ظن أنه قضى على النزاع وأراح نفسه ، بالأخص — من تحقيق شكاوى العمدة فى المستقبل . . .

فإذا هذا الأمل يهدمه الغفير الواقف أمامه . .

لا يستطيع هذه المرة أن يصرف المسألة « حبيًّا » ، أو يضحك على عقل الاثنين بكلمتين من كلامه الحلو . فهذا بلاغ له رقم وفيه مسئولية . . ولكنه لا يدرى لماذا لا تطاوعه نفسه على السير فى تحقيقه ؟ فليس من شك أن وراءه ضرراً لهذا الشاب . . ولكن ما الذى يربطه به ؟ وماذا يهمه منه؟ فى قرارة قلبه ميل خفى . . هل مبعثه حلقات الشعر المشتبكة ؟ أم إحساسه بالشفقة نحو هذا الوجه المدفون فى غرفة مظلمة رطبة فى بلد حقير ؟ . . عندما صافحه من بين ثنايا العوارض الحديدية ، خيل إليه أنه يمسك بيد سجين . .

و « كلّفت » حسنى التحقيق بمهارته وصرف الناس ، ثم قام إلى التلفون وطلب الصراف وكلفه أن يرجو عباس أن يكلمه . وبعد قليل كان فى صوته صداقة غير مفضوحة ، وثبات وتأكيد . ويرن فى السماعة على أذنه صوت سريع اللهجة ، محتد الكلام ، مهتاج اللفظ . ولكنه فهم ، ووعد بما كان حسنى يرجوه فيه .

فى اليوم التالى قبيل الظهر دخل عليه عباس وهجم على مكتبه ، يتكلم وهوواقف . . عضلات وجهه ترتعش ، محتقن اللون . وانفجر لا يتمالك أعصابه . . هو يعلم الشكوى المقدمة ضده . . ماذا فيها ؟ إنه يفعل ما يريد . ولو أراد لفعل أكثر من ذلك . على أن هذا لم يحصل . وماذا فيه لو حصل ؟ إنه يهزأ بأقصى ما يمكن أن يطلب منه كرد شرف . . أمن أجل المنزل كل هذا ؟ ماذا قال لهؤلاء البنات ؟ هل سب ؟ ليس بسبّ . هل سمعه واحد ، واحد فقط ، لا يكون من أتباع هذا العمدة السيء النية ، الخبيث؟ أو يشهد بأنه كلم البنات — كما يدعى — فى الطريق ؟ . المنزل رطب ودون ، ولا يستحق الإيجار الذى يدفعه . إن أراد إثباتاً يحضر له « الإيصالات » . إنه يقسم بالله ألف مرة أنه لا يعرف هؤلاء البنات ، حتى أسماءهن . الشمس لا تدخل غرفة النوم ،

والفيران كالقطط . وهكذا وهكذا . وهو يلوح بيديه يكاد ينكفىء على المكتب ، وأصابت حركته الدواة فاندلقت على الدفاتر ، ولكنها لم توقف من حدته ، ولا قطعت تحديقة حسنى فى هذا الشاب المحموم . تأسره من وجهه عيناه . لم يكن دقق النظر فيهما من بين العوارض ، فإذا به الآن أمام عينين تضيقان وتتسعان ، لا يستقر إنسانهما لحظة . لهما بريق غريب . ماؤهما يغلى . .

أجلسه حسنى . ولم يفاتحه بسؤال . وعند انصرافه أخذه من ذراعه وسار به إلى داره ، وأغدق عليه من « كولونيته » ، وتركه فى غرفة استقبال متواضعة ، ولكن كنباتها بأغطيتها البيض وجوها الهادئ تريح الأعصاب المتعبة . ولما دخل عليه من جديد ، وجده يخفى وجهه بين راحتيه ويبكى بحرقة ونهنهة متتالية . فانسحب دون أن يشعره بنفسه ، لعلمه أن الأزمة لا تنتهى إلا بهذا الانفجار .

نما العطف بين قلبيهما ، وأكلا معاً ، وقص عليه حسنى من ذكرياته وتجاربه حكايات تنسى الهموم . فابتدأ عباس يعود للحياة ، وشكا له أنه تعب من صحته فى الأيام الأخيرة . فهو يأرق بالليل ، يشعر فى الصباح أنه يقوم من عمل شاق ، فجسمه مجهد مكسر ، لم يرتو من النوم والراحة ، أقل

الأسباب — بل أتفهها — يستفزه الآن على خلاف طبيعته ، فينفجر فجأة ويهبّ . له حدة تعلو درجة درجة حتى يفقد سلطانه على نفسه ويصبح كلامه خليطاً من صراخ غير مفهوم، ثم يهدأ على دوخة تملأ رأسه وتكاد تصم أذنيه .

أمس جاءته هذه الدوخة فى الطريق . لا يدرى ماذا فعل ؟ وهنا تلعثم وخفض ببصره وصمت . ثم عاد يؤكد أنه لا يعرف الفتيات . كل البلد تعلم عنه الشرف وبعده التام عن المسائل النسائية . وأكبر دليل هو أن النسائيات معدومة من نفسها بالمرة فى كوم النحل، وهى بلد كالحق .

وانتهى النهار على صفاء . وأكد له حسنى أنه واجد حلا يقضى على خطر البلاغ . ولما هم يقوم ، شد الضيف على يديه . فابتسمت له عيناه ولكن ليس فى نظرة حسنى الفاحصة ولا شعوره الحساس ، ما يطمئنه على أعصاب هذا الشاب ، ولا على ما تخبئه له الأيام .

٢

لم يطل صمت عبد السميع وهدان . فبعد أسبوع واحد كان عباس من جديد موضوع بلاغ آخر . وفى هذه المرة ترك

العمدة مكره وأناقته فى الأسلوب ، وعدل عن اللف والدوران ، وكتب بلاغاً قصيراً صريحاً ، ليس فى آخره تحريض . فى بعض الأحيان يكون أسلوب العمد هو أصدق وسيلة للتعبير عن بعض جرائم الريف ، وتكون سذاجة الكلام هى الإطار الوحيد الذى يتناسب وما لجرائم الفلاحين من صور بدائية . والحادثة الجديدة ، وإن لم تكن من ضمنها ، إلا أن بساطة الأسلوب ظلت قالباً ملائماً هذه المرة ، لا لتوافقه بل لتناقضه . فقد تضمن البلاغ الساذج حادثة مشتبكة لا يمكن فصل عناصرها . هى مزيج من التعقيد والبساطة ، من المحتمل والمستحيل ، من التعقل والجنون . ولم يكن غير هذا الأسلوب — الذى يظن أنه آخر ما يصلح لوصف هذه الحادثة الشاذة — يستطيع أن يلم على الورق — بالبساطة ، رأساً من غير تطويل أو فلسفة فارغة — ما للحادثة من شتات مائل الوضع ، متنافر الأجزاء ، مثير للدهشة والعجب ، ومن صميم كله حزن وفجيعة . . .

عباس عائد فى الصباح المبكر من المحطة ، راكباً ركوبته فوق الجسر ، أمامه حقيبته الصفراء مملوءة بالخطابات . يثير دهشة أفواج الفلاحين الذين يمر عليهم ، لأنه لا يرد سلام من من يحييه منهم . . له ظل واضح الأطراف متعلق بأرجل الحمار ،

وسطه ملتو على الجسر المائل ، وآخره يتسحب تحته على بعد — كالمراقب الحذر — فوق الغيط المجاور . فى الجو نسيم مشبع ببرودة يستلذها الوجه ، وفى السماء قطع من سحاب ، عذارى ، رقيقة الحاشية ، زاهية اللون ، ممشطة مترفة ، تسير الهوينا — متداخلة متفارقة — للتنزه والتمطى فى الشمس ، فهى شفافة مبتسمة ، ليست سودا ولا دكنا ، كأخوتها الحبليات بالمطر . وفجأة رأوه يفتح الحقيبة ويتناول منها بعض الخطابات ويمزقها أرباعاً ، ثم يرميها بذراع مفرودة فتطير فى الهواء كالريش ، ثم يعود من جديد ، والفلاحون يحملقون فيه لا يدركون علته . بدأ بعضهم يضحك . . وجرى آخرون وراء قصاصات الورق ، ثم انتبهوا وتجمعوا عليه . لا يكاد يقوى على البقاء فوق ظهر الحمار ، فهو محنى يهتز — ورقبته ليست منه — إلى الأمام والخلف . عيناه مريضتان قد انطفأ بريقهما . . وجهه أصفر ، وحالته كرب

— الناظر عيان . . .

— دا مسورأ . . .

— رشوا عليه ميه . . .

وأحاطوه بالأذرع ، وسندوه بالأكف ، حتى أبلغوه منزله ، وحملوه إلى فراشه .

٣

لم يكن فى تقدير حسنى أن يتحقق ظنه بهذه السرعة ولا على هذا الشكل ، فهو لم يتم قراءة البلاغ الجديد حتى ترحم على مستقبل هذا الشاب . وارتسمت أمامه صورة عباس أمام وكيل النيابة يلاحقه بالأسئلة ويفتش ثيابه ، عله يعثر على نقود سيدعيها — فى أغلب الأمر كذباً — بعض أصحاب الخطابات . فالفلاح يعرف كيف ينتهز الفرصة . ثم يتلوه مندوب مصلحة البريد بأنواع من الأسئلة الأخرى . كل هذا وهو مريض ، وحيد ، فى منزل مقبض ، فى بلد يرأسها عدو يشعر — وهو على بعد — بشماتته .

قصد حسنى أن يصل لكوم النحل قبل الجميع . يود لو يستطيع أن يقتطع من الزمن بضع دقائق يخصصها لمقابلة وحديث بينه وبين عباس ، حتى لا يتداخل أو يقاطعه فيها أحد . ولكنه فى القطار هبطت حماسته وسرح ذهنه فى أفكار عديدة ، تبدو أن لا رابطة بينها وبين البلاغ . ومع ذلك كانت حادثة عباس المحزنة هى اليد الخفية التى تحرك أفكاره . لا تجثم بها إلا على كل فرع أجرد ، أو ماء آسن .

وصل إلى المنزل وهو متعب ، ليس على لسانه كلمة من كلمات التشجيع التى جالت فى ذهنه من قبل . فهم من الغفير الواقف على الباب أن عباس لا يزال فى فراشه ، وأن العمدة أجهد نفسه فى جمع قصاصات الورق ، فبلغ عدد الخطابات الممزقة حوالى الأربعين .

وجد حسنى صديقه راقداً فى سرير صغير ، فى غرفة مملوءة بالتراب وأسراب الذباب . أمامه منضدة صاج مخربشة كالحة ذات ثلاث أرجل ، وكرسى واحد . أخذه حسنى وجلس بجانب النافذة .

ولما رآه عباس حاول القيام ، ودلى رجلين نحيفتين يبحث عن قبقابه . العيون التى كانت تلتهب رماد قديم . . حركاته بطيئة مجهدة . . أين عباس الثائر وحدته ، من هذا الجسد النحيل المحطم ؟ وجهه فى صفرة الليمون ، ولكنه هادئ ، بل حاول الابتسام فبدت على شفتيه ابتسامة ذابلة ، ما أجدت إلا أنها أكدت مرضه .

ـ أحسن ؟

ـ أحسن كتير . . والحمد لله . . نمت شوية . . كنت سخن .

ـ وريني .

مدّ له عباس يده ، فأمال كرسيه وتناولها بكفه لحظة واحدة ، ثم تركها .

— لا . . حرارتك عادية . مافيش حاجة .

لمسة اليد هي التي فتحت الطريق . عاد عباس إلى السرير ، وأسند ظهره على الجدار ، ورفع ركبتيه حذاء صدره وغطاهما ببطانيته . ثم بدأ يتكلم على مهل ، كأنه يتلذذ بالحديث . . مرة من أول الموضوع ، ومرة من وسطه ، وربما جاء بالنتيجة قبل السبب . يطيل — على هواه — ويقتضب . أغلب الأمر أنه كان غير واضح ولا منطق فى سرد ما يقوله . . ولو كان أمام غريب لقاطعة بألف سؤال واستيضاح . ولكن حسنى لم يفتح فمه . ذراعه على حافة تعمد رأسه أحياناً . عيناه صادقتان مواسيتان تشربان من الحديث . لا لبس فى نظرتهما . . هو فاهم . . وشاعر بكل ما فى قلب محدثه . . رغم الغموض والاضطراب وضياع المنطق والتسلسل . لم تفته نغمة واحدة ، مهما كانت خافتة ، من لحن صديقه .

٢ ــ عباس أصله وفصله

١

نشأ عباس من أسرة كل أفرادها موظفون صغار لم يبرحوا القاهرة . كلهم يؤكدون أنهم من سلالة عربية (تشهد عيونه السود ووجهه الضيق الطويل) ، وبعضهم يضيف أنهم من السادات ، رغم أن سلسلة النسب الشريف التى يحفظونها تنتهى عند جدهم الثالث . كل ما يعرفونه عنه أنه هبط مصر من طرابلس ، واستقر بالفحامين فى تجارة صغيرة قوامها الشاى والبلغ . وعند وفاته أقفل الدكان ، وتفرق أولاده من المدارس على وظائف الحكومة . معظمهم مات بعده بقليل ، وهم فى مطلع الرجولة ، فقطعوا بذلك ماضى الأسرة عن جيلها الحاضر .

ظل عباس لا يرى فى هذه التفاصيل سوى حكاية يسمعها ويرويها ولا تؤثر على حياته ، إلى أن انتصفت دراسته الثانوية ، فاستيقظت فيه عاطفة من الغيرة كلما رأى ــ إذا اقتربت الإجازة السنوية ــ طلبة المديرية الواحدة يجتمعون ويتناقشون فى موعد السفر ، والتذاكر المخفضة للجماعات . وجرح قلبه . هل

أسرته نبات شيطانى عائم على وجه الماء ؟ فى نفسه ضعف لشعورها ، بأنه ينقصها — على خلاف من حولها — جذور قوية تربطها بمكان معين . إجازته كدراسته تمضى فى منزل لا يستقر فى حى واحد ، يصغر ويكبر ، ويطول ويقصر . وأخذ يصبرّ نفسه . يتذوق دونهم لذة لا يعرفونها . فهو قد فهم من محادثته معظم هؤلاء الزملاء أنهم ما يكادون يصلون لبلادهم حتى يخلعوا بذلهم ولا يرونها إلا إذا حان موعد الرجوع . أما هو فبعيد عن هذا الانقلاب وهذه الحياة ذات الوجهين . فبذلته موجودة كل يوم تنتظره بعد العصر ليخرج يتجول بها فى شوارع القاهرة . له ثلة من الأصدقاء سريعة تنقّل الأهواء . مرة فى قهاوى المالية تلعب الطاولة ، ومرة فى قهاوى أبى الريش تلعب الشطرنج ، وأحياناً فى قهاوى سيدنا الحسين يتعشون بالكباب (اسم الطعمية فى هذا الحى) . ثم إذا جاءهم فرج أول الشهر يتبخترون بضعة أيام فى شارع عماد الدين . هم فقراء لا يحتكم أحدهم على ريال صحيح ، ومع ذلك يشعرون كأن قهاوى القاهرة وشوارعها وفسحها ملك لهم .

استمر فى دراسته إلى أن اقترب من البكالوريا ، فإذا بنوع من سوء الحظ أحاط بأسرته . لا يستطيع أن يضع إصبعه على حادثة معينة ويقول : هى السبب . فالأسر

مخلوقات تهبط أحياناً تحت تأثير مرض خفى غير معروف يمنعها عن السير . أبوه – بدون مناسبة – ارتبك فى عمله ، وأحالوه قبل موعده على المعاش . وأخته غضبت وعاد للمنزل . لا هذا ولا تلك أثرت فى حالتهم المالية تأثيراً جسيماً ، ولكنها فتتت – بغير سبب واضح – من قوة تضامن الأسرة فتبعثرت وخرج عباس – مختاراً – من المدارس يبحث عن عمل ، فوجده فى مصلحة البريد . ولبث فى القاهرة زمناً يتمتع بمرتبه يصرفه وهو نشوان فى تحقيق رغبات الصبا المتكتمة . كلما أذاقته شبعاً خلقت بدله جوعاً جديداً لأنواع مختلفة من اللذات ، كالسلسلة المستديرة تأخذ الحلقة بعنق الأخرى . . ولكن دوام الحال من المحال . وجاء اليوم الذى صدر فيه أمر نقله : (ناظر مكتب كوم النحل) . . .

من ساعة ما حطيت رجلى فى البلد ما طقتهاش ، حسيت إنى محبوس . . فين مصر وشوارعها ، وناسها ، وفين الليل مليان نور ، ونسوان رايحه وجايه ، وحركة . . لكن هنا : أهو الشباك قدامك . . بص . . تلاقى إيه؟شوية طين مكوم ، وناس وسخين مقملين ، وتو ما يدّن المغرب كل واحد يتلم فى بيته . . والعتمة ؟ يا باى من العتمة يا باى . . طول الليل حمير تنهق وكلاب تعوى . . أول امبارح جاموسة الجيران

ماتت . . قبل ما يلحقوها بالسكين فضلوا يصوتوا عليها ، وهات يا لطم . . جنازة حق بحقيق . ما نمتش للفجر . . »

لم يكن حسنى أقل ضيقاً بالصعيد من محدثه . كل شفاعاته أن ينقل إلى بحرى . أطل من الشباك على بيوت واطئة متراصة . الفقير منها بالحالوص ، والغنى مبرقش بفتات التبن فى طوبه النى . كلها أقزام متزاحمة متلاصقة كأنها قبيلة متوحشة ، على رؤوسها شعر الهمج ، فى تلول هشة من حطب القطن وبوص الذرة . ووصلت إلى أذنه صرخات متعالية ، بعضها للإنسان وبعضها للحيوان ، لا فرق بينها . . حدة الصارخ فيها واحدة ، وعناد المنتهر سواء . .

على أن عينه نحت من فوق أكوام الوقود خضرة ممتدة . . لا يرى فيها شيئاً بوضوح . هو حقل فول لم تظهر قرونه بعد . أزهاره فى مقتبل عمرها ، بعضها أبيض ، وبعضها ضارب للحمرة . . كلها تهتز فى حركة خفيفة . لا يستطيع أن يحس بها من رؤية القرون مهما كثرت . بل لابد أن ترتمى نظرته وتشمل الحقل على امتداده . الحركة تجول فيه ، مختلفة النمط هنا عما هناك . ولكنها رغم هذا الاختلاف شخصية واحدة لها سحر . العيدان كلها — فى هزة المرتلين — تشترك فى أنشودة خافتة معسولة .

فى بعض الأحيان يمر بركوبته وسط هذه الحقول وتشمله بعطرها ، فينسى كل همومه ، وثقالة الصعيد ، ويسرح ذهنه ، ويشعر أن ما بينه وبين الله قد عمر من جديد . هو أسير الصعيد ، ولكنه مذعن ، موطد نفسه على الرضا بما فيه . أما عباس فزهرة لا تنزع من أرضها إلا بتلف جذورها ، فهى لا تتشبث بعد ذلك فى منبت جديد . لا يقوى على البعاد عن القاهرة : أمه وعشيقته . هو كالنحلة تستمد حياتها من زحام الخلية ، وإن كتم أنفاسها . فإن وجدت فى وحدة ماتت ، ولو كانت فى أطيب مرتع وأرفه حياة . . وعميت عيناه عن ثروة الصعيد فى سمائه وحقله ، وسمرت على أكوام الحطب .

٢

« والأدهى من كده أن دى أول مرة ألبس فيها بدلة البوسطة الملعونة دى . عامل أفندى بالكدب . لاطلت عنب الشام ولا عنب اليمن . عمر الفلاحين ما بصوا لى وأنا فى البدلة الصفرا دى ، زى ما بيبصوا باحترام لمعاون دودة حقير ، ولا كاتب صحة أصله مزين علشان لابسين بدل . كلهم

يعرفونى . لكن ما شفتش واحد ، بلاش أنكّت ويّاه، أتكلم معاه . العمدة راجل جلف زى ما أنت عارف . حتى الصراف هنا من طرز زمان ، عجوز وبعمّه . أقرب أفندى لى ناظر المحطة، ودا عشان أوصلّه لازم أركب الحمار تانى وسط العفرة ٣ كيلو . بقيت أخرج من المكتب للبيت ومن البيت للمكتب . كنت ح أجنن . أبقى معذور ولا لأ ، إذا كنت اتعلّمت الشرب ؟ كل ما انزل للبندر أجيب إزازة أو إزازتين كونياك . كل مصروف إيدى رايح على الخمرة . وأخرتها اتبهدلت بقا . القيافة بتاعت زمان طارت، وبقيت أسيب دقنى بالجمع، واتعودت أروح بالجلابية والجاكتة للمكتب . ما ألبس البنطلون والياقة إلا لما يجى مفتش . ليه خوتة الدماغ ،واقلع والبس فى البدلة وانت وسط الناس دول ! !

وابتسم عباس بحسرة وتندم ، ثم صمت . له كل حين وآخر ضربة خفيفة على ركبتيه . كأنه يروض نفسه العاصية على البوح بما فى صدره :

« كان الكلام ده قبل الوقفة بيومين . وأنا واقف فى المكتب جالى الصراف وورانى قصقوصة قماش صغيرة فى إيده . زفير ولا بوبلين ، حاجة زى دى . وقال لى :

— يا عباس أفندى . حاجة لقطة ، والبياع قومسيونجى

صاحبي ، تحب أجيب لك كام متر من دا ؟ يعجبك ؟

ـ عشان إيه ؟

ـ ليه ؟ مش ح تفصل لك جلابية على العيد ؟

مش فاكر قلت له إيه ، فاكر إنى رحت أودة تانية . حاجة محيرانى . أضحك ؟ دى أول مرة أسمع فيها إنى أبقى زى ولاد البلد ، وأفصل بدل البدلة جلابيه . تصور ؟ كل فرحة العيد قال تفصيل جلابية ! ! حاجة تضحك ولا تبكى ؟ الدمعة طفرت من عينى مرة واحدة . وهات يا عياط . . عمرها ما حصلت لى . ما كنتش أتصور أن كلمة سخيفة زى دى ، تخلينى أعيط زى العيال العياط دا كله .

٣

كم تحسر عباس فى هذا الوقت على أن الحظ الذى رماه فى كوم النحل لم يجزه بإساءته عملا مسلياً يعينه على تحمل الوحدة التى تكاد تقصف عمره ، وتطير برج عقله . كان يحسد ناظر المحطة وعامل « البلوك » ، بل وخفير « المزلقان » ، لأن لهم فى القطارات وحركة المسافرين وتطلع الوجوه ، ما ينقذهم من وهدة الضجر والسأم . أما هو فعمله آلى رتيب ، فى غرفة

ضيقة لا مفر له منها . فى أول الأمر كان له فى الخطابات جدة تأخذ عليه جزءاً من تفكيره ، وربما تفكّه بما على الظروف من أغلاط الإملاء ومبتكرات الفلاحين . (من مصر المحروسة لكوم النحل قبلى)، (إلى كوم النحل المحطة ومنها إلى كوم النحل البلد) كلها (خير وسلام)، و « بدوح » بأرقامها، ومن « يد ليد » إلخ إلخ . ولكن بعد قليل حرمه التكرار حتى هذه المتعة الضئيلة ، وأصبح يحفظ عن ظهر قلب أسماء من ترد لهم جوابات وجهة ورودها . بل أصبح يستدل على صاحب الخطاب ، لا من قراءة عنوانه ، بل من شكل الظرف أو خطه أو لازمته . وكره عباس أيامه ، وبدا له عمله فى صورة سلسلة من الخطابات موكلة به ، كالصبية حول معتوه تشاغله ، لا يصفع الواحد منها بختمه ، حتى يجىء له من جديد ، هو هو بذاته لا يتغير ، يخنقه فى كيس أصفر ، ويقذف بجثته فى القطار ، فيجده — بعد أيام — على المنضدة يصبح عليه .

وهبطت على عباس رحمة من الكونياك فعتّمت له ذهنه ، وأرخت أعصابه ، وعلمته كيف ينسى عمله وأطواره نسياناً يكاد يكون تاماً . يؤدى وظيفته كالمنوم المسوق . وزاد إهماله ، وعلا التراب كل المتاع .

على أنه وإن تخلص من ملل العمل لم يستطع أن يهرب من وحدة المعيشة . هى التى وسوست له من جديد ، وأعادت له التفاته إلى وظيفته ، ولكنه هذه المرة التفات خطر . فقد بدأ يأخذ الخطاب بيده — كأنه يزنه — ويطيل إليه النظر . ثم يضحك . ما هذا العالم المتشابك؟ ! حتى إلى أصغر القرى تصل هذه السلوك من الورق ، تربط الناس بعضهم ببعض ما لا يربطه الحديد . ليس يفهم ما بين الناس من تماسك إلا من يدخل مكاتب البريد . هذه الجماهير التى ترى حرة فى الشوارع ، فى أثرها رسائل تلاحقها وتأخذ بتلابيبها ، تصدمها وربما عرقلتها وكفأتها ، أو غيرت مجرى حياتها إلى مالا تظنه ولا يخطر لها على بال . قد تكون استجداء أو تهديداً ، شكوى أو تحكماً ، بعضها قسوة وبعضها استرحام . قد تكون محبة أو عداء ، مكتوبة بالعطر أو بالدم . قد تكون كلها أرقاماً تمثل خراب بيوت ، وقد تظفر وحدها دون غيرها بدليل على خيانة زوجة طاهرة ، أو اعتراف بجريمة . وقد تكون بعد ذلك تافهة ، غثة ، تمثل ما فى الحياة من رغاء كهدير الإبل ، ولكنها — رغم ذلك — لها قيمتها لأنها مغلقة ، مجهولة ، مطوية ، فلا يختلف جواب عن جواب ، كلاهما سر محجب لو لان الصمغ لانكشف عن أمر عجيب . وحتى لو لم يظفر

المقتحم بشيء ، فإنه سيقع على أمثلة من طبائع الناس وأهوائهم : سيشجيه أن يرى كيف يضع الله فى كل قلب ما يشغله ! لا يتشابه قلب وقلب : كلها مسارّة روحها مصونة ، لا يفسدها الجهر ، فالطبيعة فيها على حالها : لا مواربة ولا خداع . وربما لا تحوى الحياة متعة تقارب لذة تتبع رسائل عقل حساس — أيا كان عصره أو طبقته .

وأخذت يد عباس تأكله . ورغم اجتهاده لم يستطع أن يفهم البلد وعقليته ، وشهوات أهله ومناحى أفكارهم . فهل يكون عمله هو المنحة التى وهبها له الحظ ليوقفه من كوم النحل على أدق دخائلها ؟ وأخيراً — لسوء حظه — طرأ عليه وهم هو وحده الذى رجح الحجة المريضة ، وقذف به إلى الجريمة . هذا البلد الكريه سلبه شبابه ، يكاد يكون مقبرته . وهؤلاء الناس المنتنون ، المصفرو الوجوه ، المرضى العيون ، يضمرون له — لأنه غريب — ازوراراً وانقباضاً ، كلهم يضحكون فى وجهه بخبث وتبالُه ، وهو يفضلهم بتربيته وعقليته . فنى العمل الذى سيقدم عليه خير انتقام منهم . سيطويهم جميعاً علمه ، وتضمهم قبضة يده ، وسيقف أمامهم صامتاً ولكنه يهزأ منهم فى قرارة نفسه . وسيكون هو الفائز لا محالة . سيحتاط للأمر ، ويربط لسانه ، ويكتم السر فلا يدرى به أحد . فليس من خطر .

وكان مقدراً عليه فى يوم ، بعد انتهاء عمله ، أن يختار جواباً غير محبوك الظرف ، و يفتحه على مهل . .

« . . . إيدى كانت بترتعش . خايف وبرضه مقاوح . لكن رغم دا ما شبعتش من جواب واحد . بعد ما قفلته فتحت جواب تانى . جوابات فلاحين أغلبها حسابات وسلام وسؤال عن الأقارب . ومع ذلك كنت مبسوط . حاجة انزاحت من على قلبى . لغاية دلوقتى مانيش عارف ازاى قدرت أعمل كده . . مش دى طبيعتى . لكن حاجة وزتنى . . والشيطان لعب بعقلى »

اعتراف ساذج لمس قلب حسنى فابتسم . . وقلبه حزين .

ليس عباس أول شاب يعرفه يأتى من القاهرة ليرتكب أول جرمه فى الصعيد . كثيرون غيره جاءوا أصحاءَ النفوس ، على وجوههم جمال الرضا والاتزان ، فى حركاتهم وملابسهم تأنق ، فأصبحوا بعد زمن غلاظ الوجوه ، سمان البطون ، ثقيلة حركاتهم ، نظرتهم حيوانية ، وكلامهم بذاءة متكررة ، وفكاهتهم منحطة . أفكارهم سخيفة محصورة ، ضيقة . حين يعودون لمدنهم ينكرهم أصدقاؤهم ، وتختلف أذواقهم حتى كأنهم شعبان مختلفان .

الصعيد هو المسئول عن تلفهم . . فهم طيبو القلوب ، ولكنهم من ضيق التربية بحيث لا يستطيعون السمو عن المحيط

المنافر لهم ، أو إخضاع ظروفه لمنفعتهم ، واستخلاص ما فيه من خير ، والإعراض عن شره . فهم لا ينتقمون من جو الصعيد المقبض ووحدته القاتلة إلا فى أنفسهم . يسهلون لها المنزلق ، ويتردّون فى عناد وتكبر إلى الهاوية . . يبدأ أحدهم بكأس مع أصدقائه ، وينتهى بسكير مدمن . الخمر أهم خزين بيته . . ويلعب آخر للتسلى ، فيصبح مقامراً يسهر للصبح ، ويوقف حياته على تشمم أخبار « البرتيتات ». ثم من وراء ذلك من ينساق إلى اختلاس هين ، أو سرقة تعد بالقروش . منهم من ينجو ومنهم من ينتهى إلى السجن . . ليست سقطة عباس إلا مثلا آخر على ضحايا الصعيد . لا ينفرد وحده بهذا الجرم . فكم فى الأرياف من مكاتب بريد يفتح موظفوها الجوابات ، لا يكتشف منهم إلا اللصوص الذين يتصيدون أوراق البنكنوت ، وتبقى جرائم الباقى مستورة ؟ بعضها تجسس على عدو معروف . وبعضها نتيجة عقلية موظف يعيش فى وهم دائم من الدسائس والوشايات والاتهامات ، فيحتاط لنفسه ويقرأ خطابات من يتوقع منهم الشر . . .

هذه الأصناف كلها يحتقرها حسنى وينفيها عن دائرة الإنسانية التى يتعلق بها . . فهل عباس من هؤلاء ؟ جريمته واحدة . وقد يقول متشكك إنها أثر مما فى طيات نفسه من

قبح مكتوم ، ولكن حسنى يثق بإلهام ووجدان فى طهارة صديقه . إن جريمته ليست إلا ختاماً فجيعاً لاصطدام عباس ، ربيب قهاوى القاهرة وشوارعها ، بالصعيد وطينه وفلاحيه . طبيعته قبل أن تفسد تكسرت ، فهو أحسن حظاً من بقية الضحايا الذين يموتون على مهل عفناً .

٥

« كنت فى الأول أفتح الجواب إللى يجى تحت إيدى بالصدفة ، كله عندى زى بعضه ، تسلية والسلام ، لقيتها كلها سخيفة ، بقيت بعد كده أنقى جوابات ناس أعرفهم . من دول مرة عجوزة تيجى كل يوم الصبح تسأل بنفسها على جواباتها . . . »

كل الناس يواجهون الشباك،أما هى فجاءت ووقفت بجنب ، منكمشة ، الحياء يقطر منها . سألها عن حاجتها فلم تغير موقفها وكلمته . صوت مدلل ناعم ، ولهجة خليعة بلا سبب ، كأنها تعرفه ، بل كأن بينهما علاقة ، وليست هذه أول مرة يراها فيها . . .

ـ ما ليش جوابات النهارده ؟ مالك مصهين علىّ ..

ثانى يوم لما جت لى ضحكت عليها وقلت لها :

— لك جواب مسوكر . . من فضلك اكتبى اسمك هنا .

— يا بنى ما تضحكش علىّ . . دانت غالى عندى قوى وحياة شرفك ختمى نسيته فى البيت .

فتأكدت . . ولما قلت لها دى كانت غلطة منى ابتسمت قوى . . افتكرت إنى هزرت وياها مخصوص .

تتبعت مراسلات جميلة وخليل .. هى إللّى نستنى الجوابات الثانية . ما بقتش أفتح منها ولا جواب » .

٦

فى مبدأ الأمر بدأ يشك أنها جوابات حب عادية كثيرة الوقوع بين فتى يختفى وراء شباك البريد وفتاة وراء عجوز ، وأن عباراتها متكررة وفى أغلب الأحيان متشابهة . ولو كان شعور عباس مقصوراً على ما تراه عيناه ، لأملّه ما بها من خلط بين الحب وأحاديث أخرى سخيفة . فليس شىء أقرب لأصحاب الطبيعة النارية من الملل ، لديهم كل ثورة متعالية قصيرة العمر ، يعقبها هدوء كأنه الموت . ولكنه فوق ذلك — ذو قلب حساس . اهتز كالعصا التى تكتشف المناجم المخبأة . فوق كنوزها

المدفونة بين السطور ، شيء خفى فى هذه الخطابات تعلق بقلبه، فأصبح لا يستطيع الخلاص منها . .

بعد مدة بدأ بينه وبين الفتى نفور . . فهو يكتب بالحبر ، خطه جميل ، ولكن أثر التصنع والمجهود فيه ظاهر . شعر عباس أنه أمام شخص (يحسن خطه) أكثر مما يعبر عن شيء . يبدأ كل مرة من طرف الورقة المثنى ، ويضع التاريخ دائماً فى أول الصحيفة من اليمين ، ودائماً بالخط النسخ ، يحيط إمضاءه بخط يخرج من حرف اللام ويرسم فوقه دائرة صغيرة تبدأ منها دائرة أخرى كبيرة تشمل الكلمة كلها . فى كل جواب منه فراغ أبيض قصرت عنه أفكاره . أكثر أحاديثه عن حركات مادية . من أوائل الخطابات التى فتحها عباس ، خطاب يحكى لها فسحة فى القناطر الخيرية مع بعض أصحابه . . بدأه باللغة العامية، فلما جاء للحدائق وصفها لها بلغة فصحى فيها كثير من السجع . كل هذه المظاهر جعلت عباس يعتقد أن خليل شخصية ضحضاحة قوامها الغرور . . وظن فى مبدأ الأمر أنه لابد أن يكون تلميذاً .

ضاعت قيمة جوابات خليل فى نظره ، ولم يبق له إلا جوابات جميلة . لم يكن تقديره لها من أثر المقارنة بين الاثنين . فأصحاب

الطبيعة الصافية ، ولو أنها مشتعلة كعباس ، لديهم استعداد موهوب يفتح أعينهم للإحساس الصادق . . وكانت كل مظاهر جواباتها تدل على أن حب جميلة مخلص غير كاذب ، يشغل حياتها ويأخذ عليها كل تفكيرها . . وقد ساعدتها الظروف على أن تكون كتابتها أرقى . فليس فى القرى للفتاة حياة مادية تستطيع أن تتحدث عنها . هى فى أغلب الأمر حبيسة دارها . فاقتصرت جميلة على وصف شعورها وأفكارها . تقص له — من جديد — ذكريات قديمة بينهما . وليس من جواب إلا تضمنه أملا لها فى المستقبل أو ثقتها بعدالة الله . لم تحاول مرة أن تكتب باللغة الفصحى ، مع أن الدلائل تدل على أنها تعرفها . . كتابتها تنتهى دائماً — وكأنها مرغمة — فى آخر الورقة . خطاباتها كالظروف مكتوبة بقلم كوبيا . مرة تبدأ من الطرف المثنى ، ومرة من الطرف المفرد . جواباتها على الورق المسطر بالمستطيلات ، وفى بعض الأحيان تكتب على ورقة كراسة . كثيراً ما تهمل التاريخ ، وكثيراً ما يكون فى خطها حروف أكثر ظهوراً من غيرها بتبلل الورق ، دلالة على أنها تسهو فى بعض الأحيان وتضع القلم فى فمها . تبدأ الجواب بحروف متقاربة ، وتنتهى به وقد اتسعت . لاحظ عباس أن هذه الظاهرة تتكرر فى الخطاب الواحد ، فاستنتج أنها

أنها تكتب الجواب فى بعض الأحيان على جلسات متعددة ، ومع ذلك لا يستطيع من يقرأه أن يلحظ أى انقطاع فى روحه . الكلمة التى قامت عنها ، هى فى ذهنها عندما تعود .

٧

لم يكن عباس جاسوساً دنيئاً يستمد كل لذاته من اطلاعه — مجرد اطلاعه — على أسرار يظنها صاحبها فى مأمن ، سواء أكانت أسراراً ذات خطر أم تافهة . بعض النسوة يقفن بالساعات وراء الستائر يراقبن جيرانهن يؤدين خدمة المنزل . فهو لو كان كذلك لارتد شعوره ساعة فتح الجواب وانحصر فى نفسه لا يهمه — بل وربما لا يفهم — ما يقع عليه بصره . يغمره نجاحه فى معرفته للسر بالغبطة المريضة ، على وجهه ضحكة صفراء نكراء ، خبيثة ، ممرورة ، هى أكثر ما تكون تهلل الشيطان الذى يتلبسه .

أما هو فبعيد عن هذا . قلما يفكر ساعتئذ فى نفسه ، إذ يشعر أنه انتصر . ليس على وجهه أثر للغبطة ، بل بالعكس ، شىء فى هذه الخطابات يهصر قلبه ويميت شفتيه . أهو من ندمه على جرمه ؟ أم لأنه استفاق لأول مرة فى حياته على ضجة

الدنيا ، تخنق طيها نغمات قد تكون خافتة ، ولكنها أصيلة ! هل كان يظن أن أسطح القش وجدران الطين فى كوم النحل تخفى قلباً متوقداً ، يتفطر كل يوم على الورق ، ولا يهمد أو يذوى ؟ كيف احتالت جميلة حتى ضمنت أم أحمد فى صفها ؟ وسط أى الصعاب تتم جوابها ؟ يعتقد عباس أنها تكتب بالكوبيا . لأن القلم أسهل فى الإخفاء من الريشة والدواة .

ما كان يظنه لهواً وتسلية انقلب إلى شغل شاغل ورباط وثيق . أصبحت هذه الخطابات جزءاً من حياة عباس ، لا يستطيع أن يستغنى عنها . هو من قبل مجىء أم أحمد يفتش عن جوابها ، ولا يرسل البريد إلا بعد أن يتأكد أن ليس به جوابات من جميلة . فإذا ظفر به وضعه فى جيبه وتملكته حمى العاشق ، لا يطيق مرور الساعات التى تفصله عن اللقاء .

فعباس يختار لقراءة هذه الجوابات ساعة متأخرة من الليل ، وربما بين كأسين . يجلس بجوار النافذة ، يسند ذراعه على مائدته ذات الأرجل الثلاث ، وجهه فى غمرة ضوء المصباح ، ولكن فى تقاطيعه الساهمة حزن بعيد عن الانقباض ، مستريح غير قلق ، خلفه كائن قريب منه ، إن أراد أن يراه ، فما عليه إلا أن يدير للنافذة وجهه فيقابله . ليل فى ظلمة العمى ، تلفع به الكون مرغماً ، هبط على الفضاء حملا ثقيلا ،

أحاط بالأرض كالقيد ، غطّى الحقول كالكفن ، ولف القرى كالضماد . وانحدر — ولا حد لاتساعه — إلى الشقوق فاحتواها . ثم تلفت يبحث عن مداخل النفوس التى يعلم أنها تستقبله وتتشربه ، فاحتلها يتمطى فيها . هو الآن فى كل زورة لكوم النحل يتسلل كاللص إلى قلب عباس ، على غفلة منه ، كصندوق الراديو لا يعلم السر الذى يحتويه . . إلا إذا ضغطت يد على مفتاحه .

لا ينتهى عباس من قراءته حتى يغشاه الوجوم . فى قلبه وسواس خفى يشعر أنه صادق لا يخطىء يهمس له أنه يطل على الفصول الممهدة لمأساة ، ويكاد يحس بيد خفية تجذبه شيئاً فشيئاً من مخبأ المتفرج المجهول ، إلى حلقة النزاع التى تضم رأسين لا يشعران بالسيف المعلق فوقهما . . حتى يصبح الخطر واحداً للجميع .

فى الحياة مصائد تعلق بها قدم الإنسان من حيث لا يحتسب ، فلا يستطيع الخلاص منها وإن أجهد نفسه . فهل كان يخطر على بال عباس عندما فتح أول جواب أن قَدَر هذه المراسلات سيقاطع قدره ويختلط الاثنان جميعاً ؟ أن تكون فى أول الأمر لعبته ، ثم فى النهاية مصرعه ؟ لم تصبح مراسلات بين اثنين . . بل بين ثلاثة . ولعل أكثرهم تأثراً بهم

من لم يخط فيها حرفاً .

« تقلت فى الشرب شوية . وفى الوقت ده بقيت أنام بالليل وأنا خايف ، وجاءت لى أحلام مزعجة . وقمت مرة وأنا مفزوع أصرخ . ما فيش حد فى البيت غيرى . آخر ما غلبت اترجيت غفير الدرك أنه يبقى دايما مواليني . فات على كده حسبة ثلاثة أشهر وأنا ما يفوتنيش جواب واحد . كنت الأول أخمن حاجات كثيرة ، لكن بعدين فهمت من الجوابات تاريخ البنت دى من أوله لآخره . لكن مين هى ؟ ما عرفتهاش أبداً ولا شفتهاش . كنت خايف لو لمحت لأم أحمد تكون مرة بنت حنت ، تفقسنى وتوديني فى داهية . مرة ملعب مش مساهل . اتشممت من هنا وهنا عرفت أنها تدخل كل بيوت البلد تقريباً . ازّاى أعرف ؟ مش ممكن . بقيت أبص للبنات اللى ماشيين . كلهم الطرحة على وشهم ، ملفوفين فى ملايات سودا ، مصبوغةمنيلة تخرخش زى الورق . يمشو لازقين فى الحيطة زى اللى ح يدخلوا فيها . ما تلمحش وش واحدة منهم . مين فيهم تكون جميلة . حاجة تجنن . كل واحدة أشوفها أحس أن قلبى يتنفض ، مش يمكن تكون هى؟

كل اللى عرفته كان على أم أحمد . كل ما استفهم ألاقى ناس كتير يعرفوها ويحكولى عنها . ولما فهمت السبب فى أن جوابات خليل تيجى عليها ، عرفت المسألة من أولها لآخرها ».

٣ ــ جميلة . . وبنت ناس

١

كوم النحل من أعمال مركز ... بأسيوط . ليس فيها التى أحد يستطيع أن يجيب : هل النحل هو الذى خلق البلدة ، أم هى التى خلقت لنفسها هذه التسمية ؟ كل ما يظفر به الباحث سطر ونصف فى خطط على مبارك : (مشهورة بجودة عسلها ، بينها وبين مركز . . . خمسة عشر كيلو متراً) . لم يقرظها باسم أسرة واحدة مشهورة ، ولكن الظواهر تدل على أنها بلدة قديمة . قد يرجع سبب إهمالها إلى أن آثارها لم تكتشف بعد . فهى لم تتأثر بالطوفان العربى ، وتكاد تنفرد عن بقية بلاد المركز بأن اسمها ليس مسبوقاً « ببنى » ، أو ينم عن اسم قبيلة . هى واقعة على الجسر « الطوّالى » . بعدها عن الجبل نفور ظاهر عن حياة البدو . وارتفاعها عن وسط الحوض ترفع عن الزراعة . والأغلب أنها ظلّت طول عمرها فى تجارات تعيش زمناً ثم تختفى . فلما وقعت على النحل ــ ولا يعلم متى ــ لم تستطع أن تتملص من

قبضته . وشملها هذا الحيوان الخنثى العجيب ضمن مملكته ، فأدخلها خليته ، لا ليغطيها بقبته المرمرية ، بل بشهرته واسمه .

ومال بعد ذلك بخت مصر ، وذوت صناعاتها ، وجاء يوم تفرق النحل فيه من خلاياه إلى الثقوب وفجوات الشجر ، ثم بلعه الكون وغاب . لم يبق من هذا التاريخ سوى الاسم ، وبعض خليات من الطين على أسطح قليلة . يرزق منها ، ومعاشها متوقف عليها ، بيوت قبطية تربى النحل وراثة لا اختياراً ، عن تلقين لا عن سعى . تجارتهم محاطة بسر . هم ككهنة دين هدمت محاريبه فى نظر بقية السكان الذين غمرتهم الزراعة فى ذلها واستعبادها . فليست تملك كوم النحل — على اتساعها وكثرة سكانها — سوى الأقل من عشر زمامها ، والباقى وقف لسلالة من الشركس لها قصر خرب فى البندر .

من تجار النحل فى البلدة المعلم سلامة . رجل يقول عنه المسلمون أنه «عضمة زرقة» ، ومع ذلك لا يشعرون إذا جالسوه بأى كره له . لا لأنه بحكم مهنته بعيد عن المساقى ومشاجراتها ، والحدود وخصوماتها ، والمواشى تنزل فى البرسيم ، والماء يمر بالقوة ، بل لأنه رغم ما يقال عن شيبته الزرقاء (أيضاً !) لا يكاد يفترق فى مظهره ، فى أخلاقه وعاداته ، عن بقية

المسلمين . اللبس واحد ، والعمامة فوق رأسه عليها المقدار ذاته من التراب . تتحجب امرأته فى الطريق كأهل البلد .

هو أرثوذكسى ، يزهو بزيارات القسيس له ، ويأخذ أسرته كلها للكنيسة ، فيجلس هو تحت ، وتجلس امرأته وبنته الصغيرة جميلة فى الشرفة محجبة بالشيش . ويبدأ الجميع فى ترتيل صلاة ، بعضهم يقرأها من الكتاب ، وبعضهم لا يحفظ النغمة فهو متردد ، ولكنه يسير بسهولة بعد ذلك عند ما ينتظم الجميع ويحملونه معهم . يقودهم المعلم سلامة ، يحفظ كل الصلوات نغماً وكلاماً ، عن ظهر قلب . صوته أجش غليظ ، يقال عنه أنه كان فى شبابه أحلى أصوات المصلين ، ثم أتلفه الكبر والدخان . وينسى المعلم سلامة نفسه ، ويحنى رأسه على صدره . ثم ينتبه بين حين وآخر لصوت رفيع ، كله تضرع وخشوع ، هو صوت جميلة ، ترث أباها فى ذوقه الموسيقى ، لا يشعر به أحد ، ولكن أذن الأب تصطاده من وسط التيار .

وفى يوم هبط البلد مبشر بروتستانتى من أسيوط . وقف فى الشارع يعظ ، ثم اتصل بالأقلية القليلة التى على مذهبه ، وتوصل منها إلى الاختلاط ببقية الأقباط . فى يده أمنية يلوح بها ويغرى : « فى أسيوط مدرسة للعيال وللبنات مجانية ، قراية

وكتابة ، وشغل الإبرة والمطبخ . إنجليزى من الأصلى، المستر كارتر الأمريكانى والمدام أليس . مين يقبل ؟ مين عاوز ؟ فيها قسم داخلى . . »

الحب الأبوى وحده هو الذى زحزح المعلم سلامة عن تعصبه ، وأسلم جميلة ، ولم تبلغ العاشرة ، وقلبه يفيض بالأمل أنها فى يوم ما تكون معلمة فى المدرسة التى تدخلها الآن تلميذة .

خرجت جميلة من سجن كوم النحل إلى بحبوحة المدرسة . بعيدة عن أهلها ، وسط زميلات شياطين ، لا تعطيهن المعلمة ظهرها حتى يعلو ضجيجهن كلغو الحمام ، حشوه ضحكات وأصوات غضب كله دلال . يداعبنها ويلاعبنها . يقتلن الوقت فى الفسح ، ويتبادلن خلسة روايات كل سحرها من وهم قارئها .

فى نهاية كل سنة تعود جميلة لتشبع من « برام الرز بالحمام » ، و « تشبرق — يا حبة عينى ! » ، وهى محرومة فى أسيوط .

ويوم يمر ويوم يأتى ، والفتاة النحيلة القصيرة ، يتمشى سر الحياة فى جسمها ، فينبت ثدياها ، وتعرف الخجل ، وغض العين ، وصعوبة النوم . . .

وأتمت جميلة السنة النهائية ، ودعى المعلم سلامة لحفلة توزيع الشهادات ، فجاء فى أحسن ثيابه . كيف يستطيع

بعد هذه الفرحة أن يرفض طلبها البسيط ؟ يصحبها إلى «النخيلة» ، لأنها مشتاقة (قوى قوى) لخالتها . أسبوع واحد تمضيه هناك ثم تعود لكوم النحل .

— « لكن مش ح سيبك تغيبي هناك . أمك عاوزاك بالحيل . . »

٢

وأخذها إلى «النخيلة» . لا يعرف أن سبب سفرها ليس شوقها لخالتها ، بل تنفيذاً لاتفاق سابق بينها وبين إحدى التلميذات من هذه البلدة . وعدٌ له حرمته لأنه موثق بيمين . فبين جميلة ومريم « أختى وحبيبتى طول العمر » ، عهد كله أيمان وغيرة وعتاب . عشق حاد لا تعرفه سوى مدارس البنات .

عن طريق مريم تعرفت جميلة فى النخيلة بأخيها خليل . بين الأقباط — داخل المنازل — قدر بسيط من السفور والاختلاط . هو أكثر الأمر محصور بين الأقرباء .

قد تتمتع القبطية فى الصعيد بالسفور ، ولكن عدد من يعرفها فى النهاية قلما يزيد عن الذين يرونها لأول مرة . ولولا

تردد مريم على المنزل واكتسابها لقلب الخالة ، لما تمكنت جميلة أن ترى خليل أو تجتمع به — فيما بعد — فى خلوة بإحدى الغرف على غفلة من خالتها .

هو أول شاب تراه جميلة عن قرب ، ولما يمض على اشتعال جذوة شبابها وقت طويل . وزاده قيمة فى نظرها أنه أخو مريم (أختى وحبيبتى طول العمر) . خدع نفسها إكبارها للصديقة ، فانساقت دون أن تشعر إلى الإعجاب بالأخ . ولكن هذه كلها ظروف خارجية ما كانت تستطيع أن تتسلط وحدها على قلب جميلة ، لولا أن ساعدها شارب صغير — صغير جداً — شعر خفيف ، يزين شفته . فى حديثه لثغة لا ينساها من يسمعها . خدّه لم يعرف الموسى إلا من وقت قريب . يحمر ويصفر إذا تلاقى نظراهما .

كان الحديث بينهما فى أول الأمر صعباً ، غير أنه سهل بعد ذلك لما قص عليها أنه درس مثلها . (فهو بروتستانتى) فى مدارس الأمريكان ، وأن فرحه بإتمام دروسه لا يقل عن فرحها ، فهو موعود بوظيفة مدرس فى إحدى مدارس الأقباط بالإسكندرية ، وسيسافر إليها عن قريب . وأراها قلم الأبنوس الذى فاز به لحصوله على أعلى درجة فى (اللغة) الإنجليزية . هل تتكلمها مثله ؟ وأسرع يقترح عليها ، كعادة التلاميذ ،

أن يتكلما بها . وهكذا . وتنقل الحديث بينهما ، فإذا بعقلية الفتى فى مستوى عقلية الفتاة . أغلب ذكرياتهما عن المدرسة ، فكاهتهما مستمدة من التلاميذ والمدرسين ومختلف شذوذهم . وأزال هذا التشابه ما بينهما من كلفة . وشعر خليل ، بعد هذه الجلسة ، بميل معظمه صبيانى نحو جميلة ، وزاد تردده على المنزل متعمداً الانفراد بها . أمسك يدها . ثم لمس ثديها ، وقبلها . ونسيا نفسيهما فى إحدى هذه الفورات ، واجتنى منهما الشباب جزيته .

لما انتهت السكرة ، لم يستفيقا على منظر مقبض أو قلب ملتاع . بعد أيام قليلة استدعى لوظيفته بالإسكندرية . وأخبرتها مريم أن أمنية أمها أن تزوجه فى أقرب الفرص . ووعدها خليل أن يعود بعد شهر واحد لكوم النحل ويخطبها من أبيها . ستبيع أمه عشرة قراريط تملكها ، ولا يظن أن أباها يعارض أو يرفض . وكادت جميلة تقبض على سعادتها .

ظهر أول خلاف بين طبيعتيهما عند اقتراب السفر . كانت تعتقد أن زحمة ترتيب « الشنطة » وتوديع الأقرباء لا يجوز لها أن تغطى على اهتمام الحبيب بحبيبته . فى حين أنه شملها ضمن هذه المشاغل ، لا يدرك إحساسه أن اعتذاره بإحداها يتنقصه فى نظرها ولا يبرئه .

على أنه استطاع أن يختلى بها ، وكرر لها ، وكأن صادقاً ، كل يمين . وجسم لها المستقبل مرة أخرى فى صورة سعيدة محققة . مسألة وقت لا غير . ثم هفا به لسوء حظه طبعه الصبيانى ، وطلبها من جديد . وكانت جميلة واثقة من وعوده ، وربما لم تكن أقل منه ميلا لطلبه . ولكنها أثناء نشوتها ، أشرق عليها إدراك أشبه بالإلهام ، أحست معه بفراغ بارد يدب فى قلبها فيطفئ من هيجانه وناره . فى إلحاح خليل عليها لتجيبه إلى طلبه وهو على أهبة السفر — دليل مؤكد على خفته وقصور نظره عند موطىء قدميه . يهمس لها وسواسها : لم العجلة ما دام سيعود ؟ أهو صرح عال على رمل ؟ هزة واحدة هدمته حولها حطاماً . ودهش الفتى المتعب عندما رآها تتشبث برقبته . تحوطها بذراعيها ، وتسند رأسها على كتفه ثم تحضنه . تحضنه إلى صدرها وتهذى كالمحمومة :

— خليل ! خليل ! خليل !

لم يتعب خليل فى تهدئتها . فهى التى استفاقت إلى عبث ما بدالها من جديد أنه وهم متسرع . وعاد إليها ، بعد جهد ، اطمئنانها على مستقبلها ووثوقها بخليل .

وبدآ يتكلمان عن فترة الغياب ، واتفقا على أن يتكاتبا . فأخرج خليل من جيبه ورقة وقلماً وكتب لها عنوانه بالإسكندرية ،

فهو سينزل ضيفاً على أحد أقربائه ، أخذتها جميلة وقرأتها . ثم التفتت إليه تبتسم — وكأنها تعاتبه . مزقت الورقة أمامه :

— يستحيل أنساه . . ماتخافش .

ولكن كيف يرد عليها ! أنها ستغادر النخيلة عن قريب . وفى كوم النحل لا تستطيع أن تستلم خطابات باسمها بدون علم أبيها . إذن فلتكتب له ، فهذا لا يصعب عليها ، وليصبر هو لا يرد عليها حتى تعود لبلدها ، وتهديه إلى طريقة تمكنه من مراسلتها .

٣

فى مسائه الأخير جاءها ليودعها . قلق السفر يتملكه ، فهو عجل مشرق الوجه لا يستقر على فكرة . لم تصدمه الفتاة بوجه عبوس أو عيون دامعة ، بل وجدت نفسها تشاركه ، صادقة طيبة النفس ، بهجته . هل يستطيع أن يحدد لها ميعاداً لرجوعه لكوم النحل ؟ بعد أول مرة يقبض فيها مرتبه من عرق جبينه . لن يغيب أكثر من شهر واحد . هل سمعت عن فلتس معوض ؟ لا ؟ إنه من أقربائه البعداء ، وسينزل لديه مدة إقامته فى كوم النحل .

ولما هم ينصرف أمسك خليل بيديها ووضعهما على كتفيه ، ثم طوق خصرها . عيناها فى عينيه . السعادة التى تغمره صفّت طبيعته من التصنع والالتفات للنفس ، ولذلك نفذت نظرته إلى قلبها وطوى شعوره شعورها .

ــ « أحلف لك بإيه أنى مش ح أخونك فى الإسكندرية . إوع تفتكرى .

ــ أنا بقيت فى إيدك . . اعمل فى اللى تعمله .

ــ إنتى خايفة ؟

ــ لا بس مش عارفه ح أصبر ازاى .

ــ كل ما تفتكرى فى اكتبى لى جواب . بس جوابات طويلة مليانة . عاوزك تكتبى لى كل يوم ولوحته ، وأنا تو ما ح تبعتيلى عنوان ح اكتب لك على كل حاجة » .

وجلس وأجلسها على ركبتيه . قبلها على عنقها وعينيها وبين ضفائرها . ثم توالت قبلاته حارة هوجاء هنا وهناك . . لا يدريان كم من الوقت مر عليهما . ولا كيف تنتهى هذه القبلات .

حركة رجل وصوت باب ، قطعا عليهما الخلوة . وقام خليل . . آخر ما رأته منه وجهه يديره لها وهو يخرج . وجه طفل سعيد فرح .

بعد يومين كتبت له من النخيلة جوابها الأول .

٤

أقفرت النخيلة فأرسلت لأبيها أن يأتى ويأخذها . . وعادت لكوم النحل معها حقيبة بها «برانيط وكتب» : أعجوبتان فى منازل الطين والقش . .

وتوالت على جميلة زيارات أقاربها وجيرانها ، لا تجد وقتاً تفكر فيه كيف تدبر طريقة يراسلها بها خليل . . وكتبت له جوابين تخبره بأمرها ، وتطلب إليه أن يصبر قليلا .

وبعد أيام كانت فى مجلس كله فتيات من سنها ، ينصتن لفتاة تفضى لهن بمخاوف هى على كل حال لذيذة ، بدليل ما فى وجوه المستمعات من تطلع وعيونهن من بريق . دخلتها بعد يومين ، وهى لا تدرى شيئاً من أمر أول ليلة مع زوجها . ماذا سيحل بها ، هى خائفة مضطربة . توالت عليها ردود كلها عن سماع أو اجتهاد . وكانت حجتهن جميعاً واستنادهن الوحيد (أم أحمد هى اللى قالت) . هو اسم لا تجهله جميلة ، وإن لم تر صاحبته من قبل . لا تعرف عنها الكثير . . ولكنها لم تقم من المجلس حتى علمت كل أخبارها .

هى امرأة تزوجت أربع مرات . فارقها كل زوج بطلاق

بعد عشرة قصيرة . وتسنى لها بفضل هذه المجموعة أن تشترى بما جمعته من متأخر المهور فداناً ونصف جاموسة . هى ماشطة « بلانة » فى الأفراح ، حادية بالغناء عند طلوع الحجاج ، والمقدسين ! — أو رجوعهم . داية إن استغاث بها جار قريب ، تعرف وصفات ، وتفسر الأحلام ، وتحسب النجم . تفوح منها دائماً رائحة الماورد ، كل مناسبة اجتماعية تكون فيها أم أحمد بلا دعوة . . إلا فى المآتم ، فهى لا تطيقها . ولعل ذلك لأنها لم تخلف من زواجها المتوالى ، ولم تفجع ، كمعظم المتطوعات باللطم و « الصوات » ، فى ولد عزيز . .

إذا قابلت فتاة كلمتها رأساً ، ولو كانت تعرفها لأول مرة ، عن جسمها وثوبها وشعرها وحمامها . وإن كانت امرأة سألتها عن زوجها وعاداته ونوبات مرضه وهجرانه . . كم فى كوم النحل من رجال يجهلون أن زوجاتهم تلقين عن أم أحمد نصائح أشبه بالدروس . فمعظم النساء يعرفنها ، ولكن القليل منهن من تعلم أن أم أحمد قد تمثل فى بعض الأحيان — عندما تكون « رايقة » — مع التلميذة نصائحها ، لتكون دروسها عملية أقرب للفهم ، وأن هذه الدروس هى سبب اطمئنان فتيات كثيرات فى لياليهن الأولى مع أزواجهن ، أو ارتفاع قيمة زوجات فى نظر رجالهن بعد هبوط وإعراض . .

استطاعت جميلة أن تتصل بأم أحمد . ورغم سمعة هذه المرأة — أو ربما بسببها — شعرت بوثوق شديد بها .
أفضت لها بقصتها ، وإن كتمت عنها زلتها ، وبثتها حيرتها فى شأن الجوابات ، فكانت أم أحمد هى التى اقترحت عليها أن يكتب لها خليل على عنوانها هى . . ستحفظ الرد من « جوه حبانى عنتى . . » وتوصله لها .

وعلم خليل بالعنوان . . واستلمت جميلة جوابه الأول كاللقية . . فقليل من الناس من يستطيع أن يكتب خمسة جوابات قبل أن يصله الرد الأول .

ليس يصعب عليها أن تكتب الجواب بقلم كوبيا خفية فى منزلها . أحياناً تعطى الجواب لأم أحمد ، وهى التى توصله للبريد ، وأحياناً تكلف به أحد صبيان الحارة على ظن أنه من المنزل وبعلم أبيها . . وهذا لأن مكتب البريد فى السوق أمامه دكاكين ، وأناس جالسون أقوياء العيون ، وهى تخشى أن يعرفها أحد ، فيتصل بعلم أبيها خبر ترددها على المكتب وينفضح سرها .

فى أول الأمر اقتصر حديث خليل على حياته المدرسية وعلاقته بالتلاميذ ، وتعبه من الدروس ، ثم بشرها فى خطاب تال أن ناظر المدرسة مسرور من اجتهاده ومواظبته ، وأنه

أوصى بمنحه علاوة وبترقيته . . وأنهم لذلك اختاروه لوظيفة خلت بمدارس القاهرة ، وسيسافر إليها عن قريب . . أليس هذا من بركتها عليه ؟

لم يمض وقت طويل حتى جاءها خطابه من القاهرة . هو فى وظيفته الجديدة منذ يومين . ما أتعب النقل وزحمة السفر ! ولكنه مسرور . وطلب منها أن تراسله منذ اليوم على شباك بريد الفجالة لأنه يستطيع أن يمر هناك كل يوم ويستلم خطاباتها أول بأول .

وانتظمت المراسلة بينهما .

٤ ــ فرحة ما تمت

١

وفى خليل بوعده ، وجاء بعد شهرين لكوم النحل ، ونزل لدى قريبه فلتس معوض . يظلم هذا الشاب من يتهمه بأنه غشاش أو مخادع . كل ما فى الأمر أنه قليل التجربة ، يقدم بسذاجة على أدق المواقف ، جاهلا بما فى شعائر الحياة من صلابة . فقد جاء لكوم النحل مفلس اليدين ، لأن أمه لم تبع الطين . لا يدرى بالضبط إلى أى مدى يكون مسعاه . كل ما أخبر به أمه أنه سيخطب جميله ــ يخطبها فقط ــ من أبيها .

وقابل خليل مع قريبه فلتس المعلم سلامه ، وفاتحه برغبته فى الزواج من جميلة . فارقهما الأب وهو فاهم أن المسألة خطوبة فقط ، لأنه ينتظر أن يكون مع الشاب أمه أو أحد أعمامه . ولكنه عندما أخبر زوجته الخبر ، سهلت عليه أن يتم الزواج كله مرة واحدة . يجوز أن تكون أم العريس مريضة أو عجوزاً لا تتحرك ويتلف أمل البنت . ثم ما داعى الانتظار ؟ وكانت جميلة بعاطفة نصفها محبة ونصفها استبداد ، قد ضمت أمها

إلى صفها ، بل كانت تحركها طوع إرادتها .

فى الجلسة الثانية لم يشعر خليل أنه ينساق إلى التكلم فى الإكليل وتاريخه . ثم وقفت المفاوضة مرة أخرى عندما فهم المعلم سلامه أن خليل لم يأت بالمهر . مرة أخرى زالت هذه المشكلة فى منزله . . وقبل بإلحاح زوجته أن يعقد الإكليل ، على أن لا تسافر جميلة للقاهرة إلا بعد دفع المهر . فهو لن يخسر شيئاً الآن ، ولن يبدأ فى شراء الجهاز — من ملابس وصيغة — إلا عند قبض النقود .

وتحركت المساعى من جديد . . وقابل الجميع القسيس ، فإذا هو ماء بارد يصب بلا رحمة على نار عجلتهم . . العريس بروتستانتى والعروسة أرثوذكسية . . فلا بد من أن يكتب لمصر ليستأذن . هل جاء بشهادة من كنيسته بالنخيلة أنه غير متزوج ؟ إلخ إلخ . شروط شكلية ، ولكنها تستلزم وقتاً . وخليل فى إجازة قصيرة قاربت الانتهاء . إذن يعود مرة أخرى .

لم يستطع أن يختلى بجميلة قبل سفره . لم تأس على ما فاتها ، فأمامها المراسلة بينهما ، سيتفاهمان بها من جديد ، وستبث الورق كل ما كانت تود أن تقوله .

ولما انتهت هذه الجلبة بسفر خليل ، أحس المعلم سلامة أنه يستيقظ من حلم . أين هو وقت أن كان يساق إلى كل هذه

التسهيلات لأجل هذا الفتى الغريب عنه ؟ وحمد الله فى سره أن المسألة لم تتم ، يلزمها أولا تكملة ما فى شكلها الخارجى من نقص يلحظه الناس . على الأقل تأتى أمه ليرى وجهها ، أو يقدم لها خاتماً . ثم هو يريد أن يسأل بعض معارفه فى القاهرة عن حقيقة مرتبه ، وعن مركزه فى المدسة . ولو درى المعلم سلامة أن فى بطن ابنته جنيناً ينمو يوماً بعد يوم ، كعقرب الساعة لا ترى العين حركته ، وهو دائب السير لمصير محتوم ، لما حمد الله كما فعل ، ولأكل الهم قلبه .

٢

ليال لا تنامها من الفرح ، تتلوها ليال من الكرب . كانت قد ألهبت عواطفها بالسياط ، وعلقت كل آمالها على مجىء خليل ، فخانها حظها الأغبر . لا تجد أصعب على النفس من الفرصة تملكها اليد ، ثم تنساب من خلال الأصابع كالماء . لم تكن فى إشباع شهوة أو تحقيق حلم ، بل فى إنقاذ شرف . ولماذا لا تقول إنقاذ روح ؟ فمن يدريها أن حنان هذا الأب قد ينقلب فجأة إلى قسوة لا تلين ؟ أصابعه التى تجوس خلال شعرها قد تتصلب فى خيانة مباغتة وتطبق

على حلقها . جميلة ! أنت ! التى كنت أعزها ولا أرد لها طلباً ، تفضحين شيبتى . تضعين ذقنى فى الوحل ، واسمى فى أفواه الناس يمضغونه على مهل ، كأنه العلك اللذيذ . على مهل من هنا ومن هنا . يتبادلونه كأنه الهدايا ، ويثيرونه عندما يملون الحديث.

لمن تشتكى ؟ فتاة لا تعرف من المآزق والمخاطر شيئاً ، ترى نفسها أمام مشكلة ليست فى الحياة مثلها . هى عقدة كلها اصطدام ونزاع ، وخيوطها من ديانة وتقاليد ووهم ، موشّجة بحكم الدم والجسم . وسر الحياة لا يهمه ماذا يعتقد الناس . لا رحمة فيها . جبروتها قلما يستطيع أن يثور عليه رجل يعيش فى وسط الصعيد ، وبعقلية يرثها عن أجيال لا تتسامح ولا تلين .

اصفرت جميلة وتاهت نظرتها ، وتعلمت أن تحتضن الوسادة بذراعيها ، وأن تسرح لا أن تنام . تتقلب على الجنبين . هل من مخرج ؟ ليس إلا أن يأتى خليل من جديد .

وعادت لخطاباتها ، فهى كل ما بقى لها . تنفخ فى روح أملها ، وتستحث خليلا على المجىء .

٣

فى هذا الوقت بدأ عباس يفتح الجوابات . لم يفهم فى أول الأمر أن جميلة قد دخلت فى دور الأمومة . فهى بعد أن

أخبرت خليل بسرها فى خطاب سابق لم تعد إلى ذكره . تشاؤمها وخجلها يثنيانها . تحتمل عارها فكرة ، ولا تطيقه على الورق مخلوقاً من صنع يديها مكشوف الوجه ، بشعاً يحملق فيها . واكتفت أنها فى كل خطاب تناديه ، وهو فاهم .

وظل عباس جاهلا سرها ، وإن كان فى دخيلته إدراك مبهم بأن هذه الخطابات تحوى شيئاً بين النقص والتناقض . فكان ما بها من تشبث بعيد عن الارتماء ، وعاطفة لا يضعفها التكرار ، ولا يطفئها صقيع تيار يخلفه الزمن فى جريه قد جعل عباس يراها وهو مأخوذ بها فى صورة معوجة ، تزيد من إعجابه ، بقدر ما تمد فى ظنونه . ولكنه — كلوحة السينما تدلس الفزع بمنظر أبتر ، وترد منطقيته عندما تكشف عن أساسه — أدرك ما كان غائباً عنه عندما وجدها فى خطاب غريب تنفجر بمرارة . مسكينة ! تقول له لماذا لم يأت ؟ هل نسى ما أخبرته به ! أم لم يفهم ؟ لعله فى فسحه يضحك ويتسلى بين أصدقائه يطارحهم النكات . فهل فكر فيها ؟ جاوزت شهرها السادس وأصبح منظرها مفضوحاً . منذ أيام وهى تدعى المرض حتى لا يراها أبوها . جاءها القسيس وبارك وصلى . وجه أمها مسود كسيف ، لعله هو الذى ينم عليها . لا يزال فى الأمر مخرج . لو جاء ! لو جاء وعقد عليها وأخذها معه . بعيداً بعيداً عن

هذا الأب وهذا المنزل . لتعش طول عمرها خادمة تمسح حذاءه ، ليضربها كل يوم ، ليعطها عيشاً حافاً كالكلاب .

« لما قريت الجواب حسيت لأول مرة أن المسألة مش هزار ولا لعب عيال . أتاريها حاجة خطرة ومحزنة وأنا مش دارى . افتكرت جواباتها كلها وفهمت . وقتها بس فهمت . أقول لك الحق قلبى وجعنى علشان البنت دى . طول الليل وأنا أفكر فيها . لو كنت فى مصر يمكن ما كنتش أترعب علشانها . لكن هنا فى كوم النحل حاجة مخوفانى . حتى الهوا اللى الواحد يتنفسه يكتم الصدر ويخنق الواحد . ما فيش رحمة ، كل أملى حطيته فى الرد اللى ح يجى . ماليش صبر استنى . أنا يا للى ما ليش دعوة ولا حاجة تمسنى ، أمال هى بتعمل إيه ؟ »

بعد أربعة أيام جاء الرد . لم يستطع عباس أن يصبر حتى يأخذه معه إلى منزله ويقرأه فى خلوة ، بل فتحه فى المكتب وبقية الخطابات أمامه لم يفرزها بعد . وقرأ :

« عزيزتى ونور عينى

علم الله أننى ما تأخرت فى الكتابة إليك إلا لأننى كنت مشغولا ومشغولا جداً . وأنا يا عزيزتى لم أرد إخبارك من قبل بسوء التفاهم الذى وقع بينى وبين ناظر المدرسة حتى لا تتكدرى

من أجلى . كل الخناقة على درس خصوصى والسبب فى التوقيع شخص كنت أعده صديقى كما قال الشاعر :

احذر عـــدوك مـــرةً
واحذر صديقـــك ألف مره

وتصورى يا عزيزتى أن الناظر أراد أن يؤذينى ، وسمعت من الباشفراش أنه شرع فى كتابة تقرير ضدى ، حتى أصبحت أترحم على أيام الإسكندرية ، وحتى يئست من حظى ، وقلت إرادة الرب . ولكن محبة إلهنا خلت ناس من حيث لا أعرف يتوسطوا لى . وأخيراً قرروا إعادتى للإسكندرية وهذا آخر جواب أكتبه لك من مصر ، لأنى مسافر اليوم بقطار المفتخر . فأرجوك يا عزيزتى أن تكتبى لى من الآن فصاعداً على عنوانى القديم هناك . عزيزتى — أظن فهمتى الآن لماذا تأخرت فى الرد ، ولماذا يستحيل على السفر إليك . لولا المشاكل التى شرحتها لك ، لكنت كلمتهم فى إجازة قصيرة بحق وحقيق ، ولكنى زى ما شفتى ما فيش فى إيدى حيلة . ولكن لا تخافى المسألة ملحوقة . استفهمت من ناس قالوا لى على أدوية كثيرة ووصفات ، فأخبرينى أبعت لك بدوا ينفعك . وهذا فقط حتى تأتى إجازة الصيف وأحضر لك .

عزيزتى — أخبرك أن أختى مريم ستحضر طرفى للفسحة

بالإسكندرية ، وأمى فاضلة لوحدها رجليها بتوجعها ، ومش عاوزه تسافر .

عزيزتى — عندى كلام كثير مخليه لما أروق فى الإسكندرية أكتبه لك من هناك.

ألف قبلة من المخلص إليك دائماً . خليل »

« شفتش بواخة أكثر من كده ؟ هو دا جواب يكتبه المغفل دا . زى اللى أنا حاسس بقلب البنت لما تقراه . . سكاكين تقطع فيه ! ! »

٥ ــ سقطة البوسطجى

«حطيت الجواب على جنب فوق الطرابيزة عبال ما أخلص من الشغل وأقفله على مهلى . قلت فى نفسى أصلا ما هواش مستعجل قد كده . ويمكن يبقى ثواب منى لو أخرته عن البنت المسكينة شوية . ومسكت فى الشغل زى العادة كل يوم .

ملأ الختامة حبراً جديداً ، وأصلح تاريخ الختم المستدير ، ثم جاء بالخطابات ورتبها كلها على ظهرها كوماً واحداً ، ثم بدأ يختمها فى حركة آلية سريعة متكررة . مرة على الختامة ومرة على الجواب . خبطة مكتومة ، وراءها رنة خشب . هذا الصوت الذى يألفه كل من يعيش بمكاتب البريد أو يمر بها . هو شهيقها وزفيرها وهى تلهث فى عجلتها .

لسوء حظ عباس دخل عليه فى هذا الوقت شيخ الخفر . هو رسول العمدة يسأله متى يخرج من البيت . هب فيه عباس وهو محتقن الوجه هائج . ختم البريد فى يده يرتعش . ما هذه « الخوتة » ؟ كل يوم : البيت ، البيت ، البيت . يكفيه وجع دماغ . إنه لا ينادى طرشاً ولا يتكلم بالسريانى . هو باق

لا يحرك لوعيد ولا لرجاء . إنه ليس بطفل يهزل . وحتى يعتقد العمدة ويريح نفسه، ها هو هذه المرة يقسم بالله ثلاثاً أنه لن يخرج من الدار . والله العظيم وبالله الكريم ..

نسى أن الختم لا يزال فى قبضته . ولم يهتم فى حدته أين تقع ضربة الختم . وخانته يده فهوت بالختم على جواب خليل المفتوح .

وقبل أن يعى عباس لنفسه كان قد انطبع تحت إمضاء خليل ختم (كوم النحل — وارد) فى استدارة أم خمسة . تلمع الحروف والأرقام ، حبر زفر ملعون .

وقف أمام خطئه ذاهلا تركبه الأوهام . لو حاول أن يمسحه لخرق الورق. وكأنه جاء يكحلها فأعماها . ولو أقفله وسلمه لأم أحمد ، فلا بد أن تكتشف جميلة سره وتتصل بخليل فيشتكيه — من يدرى ؟ وربما قدم الخطاب دليلا ضده ، فيكون جزاؤه الرفت مؤكداً .

« بقيت بين نارين . إن سلمت الجواب انفضحت . وإن قطعته ولا حرقته تفضل جميلة تهرى وتنكت مستنية الرد. والذنب ذنبى أنا . لكن قلت فى عقل بالى : يا ما جوابات بتضيع فى البوسطة . لو ما رحلهاش بالمرة يكون أحسن ، والمسئولية تبقى متوزعة بينى وبين العموم فى مصر . والجوابات العادية

دى ما عليهاش كونترول . وغايته لما يشوف خليل أن جميلة اتأخرت عليه فى الرد يكتب لها تانى من الإسكندرية ، وح تفهم أنه راح هناك، وتكتب له العنوان اللى عارفاه . إيه العنوان دا أنا ما أعرفش . هى لازم كتبت له عليه كام مرة وحافضاه كويس » .

واحتفظ عباس بالجواب . جاءته أم أحمد فهز لها رأسه . عادت بعد الظهر . « مع الأسف ما فيش » فى الصبح مرة أخرى : « لسه ماجاش » : بعدالظهر . « ما كنش ينعز . » تانى يوم : « النهارده الحد مافيش بوسطة » . يوم الاثنين : « يمكن العصر » . فى العصر : « يمكن فى الصبح يجى » . كل هذا والجواب مطبق بظرفه فى جيبه .

« عاوز أكلمها وأفهمها . أقول لها خليل راح الإسكندرية . لكن مش قادر . متعرفشى أنا فى الأيام دى كنت متعذب قد إيه . ولسه اللى جى العن والعن » .

فى اليوم الخامس جاءه الخطاب الذى كان ينتظره بلهفة . خليل كتب من جديد من الإسكندرية . لم يفتحه . ونوى أن يسلمه إلى أم أحمد لحظة أن يراها . فيكفى ما سببه من تأخير . ولكن أم أحمد لم تأت . انتظرها إلى العصر فلم تظهر . بعد التشطيب ، وضع الجواب فى جيبه وسار إلى مسكنها . لم يقترب

من رأس الحارة حتى رأى النسوة حول المنزل كرش الملح . كلهن « مبشنقات » ، دق قلبه ، وكذب وسواسه ، وسأل فأجيب :

ـ أم أحمد تعيش أنت .

وعلا حواليه صراخ النائحات ، وخيل إليه وهو مشتت الذهن أن كل هذا الجمع الأسود كسرب من غربان الشؤم ، يصوت عليه وعلى مصيبته الثقيلة وبخته المائل .

« وقفت مذهول . طب ماتت ماتت . مرة كركوبة فى داهية . لكن الجواب اللى فى جيبى اعمل فيه إيه ؟ الغلطة بتاعتى بدل ما تتصلح اتهببت زيادة . ح اضطر أرجع الجواب للعموم وأقول عليه : (المرسل إليه متوفى) . لو كنت ما بوظتش الجواب الأولانى كانت جميلة عرفت مطرح خليل وكتبت له على عنوان جديد بعد موت أم أحمد . واتفقت وياه على حاجة . جيت أنا بسلامتى وقطعت الخيط إللى بين الاثنين . والمصيبة أن الغلطة دى ما تحصلش إلا والبنت فى كرب . تقريباً بتستغيث . ح تقول عليه إيه ؟ لازم ح تفهم إنه بيتهرب منها والجدع مظلوم . ويمكن كان يجى لو كتبت له مرة تانية . مين يعرف ؟ وأرجع أقول ينفلقوا الكل سوا أنا عاوز أخلص نفسى وبس . حرمت ألعب فى جوابات العيال دول توّ ما يكتبوا

لبعض من جديد . لكن ازاى ؟ ازاى أتوصل لجميلة ؟ ما يمكنش فى بلد زى دى تتشمم على بنت أو تسأل . وتسأل مين ؟ دانا غريب وعازب . وبفرض عرفتها ، أكلمها ازاى ؟ مشيت مش حاسس بنفسى . أبص للبنات اللى فايتين . يا ترى ما تكونش دى جميلة ؟ ولا دى ؟ يمكن دى ؟ قايست وحاجة خلتنى هجمت على أول واحدة :

ـ جميلة ؟

هربت منى ! والثانية :

ـ ما تعرفيش جميلة ؟

خافت وجريت ! والثالثة دورت وشها للحيط ، ووطت. شوية شوية ح تقعد ع الأرض وح تعيط :

أظن دلوقتى ح تضحك لما تفتكر بلاغ العمدة الأولانى ضدى . وازاى انتهز الفرصة دى واشتكانى . أنا كذبت عليك وقتها . ولما سيبتك كنت عيان صحيح . ما أقدرتش أقوم من السرير . جات لى حمى بقيت أهلوس يمكن جمعة .

فى الوقت ده جه للمكتب بدل من أسيوط واستلم الشغل . لازم جميلة كتبت مدة غيابى لخليل على عنوانه بالفجالة تتعجله وتقول له على موت أم أحمد. والغالب ـ زى ما قلت لك ـ أنها فهمته على عنوان جديد يكتب لها عليه . دا كله علشان لما قمت

من العيا واستلمت الشغل تانى، لقيت جواب منها على عنوان الفجالة . جواب قصير تقول له إنها مستنية الرد بسرعة . وضرورى يجى قوام ، وطبعا ما كانش فيه مناسبة تجيب له تانى سيرة عنوانها الجديد لغاية دلوقتى ما عرفتوش ولا أقدرش أضمن يكون هوا إيه . لكن خليل عمل إيه ؟ لازم فضل هو راخر يبعت فى جوابات على عنوان أم أحمد ولاحدش يأخذها . علشان أتأكد كلمت البدل، وعملت حجتى إنه جديد فى البلد ولا يعرفش حد، وسألته :

— عندكش جوابات لسه ما وزعتهاش ؟

— فيه جوابين ثلاثه . لكن ما تخافشى . أنا روّقت لك الشغل تمام . حتى واحدة أظن اسمها أم احمد كان لها جوابين رجعتهم للعموم، علشان ناس قالوا لى إنها ماتت .

بعد كده جه جواب تانى من خليل . فتحته . إيه الحكاية؟ ما بتردش عليه ليه ؟ هو زعلان من زعلها . مالهاش حق تزعل ما دام فهمها عذره. وجواب تانى بعد ده بعشرة أيام تقريباً . لسة زعلانه ؟ إذا كان فيه حاجه مزعلاها لازم تقولها له. وهو بس ح يكتب لها جوابات على فشوش وحاجة زى دى ! وبعد كده سكت ، خرس . ولا جواب تانى جه منه بعد كده .

الجوابات دى كلها بقيت أخذها . ما أرجعاش للعموم .

وإيه الفايدة ! وكنت باعمل كده فى جوابات جميلة كل يومين والثانى يترمى فى الصندوق جواب منها . جواباتها زخره اللى راحت مدة غيابى ع الفجالة ، طبعاً لسه ملقحة فى الشباك هناك . ماحدش بياخدهم » .

وتاهت نظرة عباس ، وتصلب وجهه ، وسمرت عيناه على مرمى بعيد . ليس فى وجهه أثر للروح الخفيفة المرتعبة الهائجة . تمثال من البرنز ، يقصد صانعه إبراز قسوة اللحم ، وصلابة خطوط الجبين ، والحفن البارز من أثر المجهود . تتبعه حسنى بنظرته ، وهو يعجب كيف تنقلب الطبيعة فجأة . هل يكون هذا علامة على أن عباس مشرف على مرض آخر ؟ أعاده للحياة بسؤاله .

ــ وجميلة ؟

عاد عباس لحديثه أهدأ صوتاً وأخفت نغمة :

ــ « جميلة؟ يمكن بعتت له ٢٠ جواب . كل يومين ، وفى الآخر كل يوم . ما عرفتش مين اللى بيجيبهم للبوسطة . كنت دايماً ألاقيهم الصبح . لازم حد بيرميهم قبل ما أحضر للمكتب . فى الأول سألته : ليه ما يبردش عليها ؟ هى مش عاوزه منه حاجة ، بس يفهمها إيه سبب سكوته » .

ثم أخذ كل خطاب يقصر عما قبله . كالنار تنطفىء وتطأطىء رأسها على مهل . حالتها سيئة ، ومصيبتها كبيرة ، ولكنها

واثقة فيه . لا يفارقها اعتقادها أن كربها إلى فرج ، فماذا جنت هى فى حياتها ؟ لا تذكر أنها صلت بقلب بارد ، أو أذنبت فى حق الشاب . يا رب ! لماذا ؟ من وسط آلاف الفتيات يختارها القدر ليذيقها المر ؟ من أسابيع وهى لا تخرج من البيت حتى ذوى لونها ، وأمسكت عن الأكل إلا ما يدفعها إليه جوعها .

وساعد جميلة على التهرب من نظر أبيها أنه قلما يأتى لمنزله إلا لينام . تجارته تشغل وقته وتضطره إلى السفر لأسيوط . فى المرة الأخيرة عاد مع الليل بعد غياب غير قصير ، ودخل وفى حضنه بطيخة .

— « جميلة ! فأجابته أمها :

— البنت عيانة شوية . سيبها » .

جواب واحد لا يتغير منذ زمن . سار المعلم سلامة إلى ابنته . لما رأته — وهى فى فراشها — نهضت واقفة . الغرفة معتمة والنور ضئيل . اقترب الرجل من ابنته ووضع يده على رأسها ، وسقطت نظرته على جسمها . ورفع وجهه ، فإذا به قد شاخ فى اللحظة الضئيلة سنين . هو «العضمة» الزرقاء حقاً . وجهه فى لون رمادى منطفىء . ذقنه معفرة وشفته « منيلة » . فى عيونه لمعان أصفر ، وكأن رأسه صغرت فجأة ، فالعمامة تنزلق ، وهى ثقيلة الدم ، فتقضم نصف أذنيه ، وأدار وجهه لينادى زوجته ، فانفلتت

جميلة وعادت إلى فراشها . نظرة أخرى ثم خرج .

ونسى المعلم سلامة عشاءه ، وفضلت البطيخة صحيحة .

« رجعت جميلة كتبت لخليل جواب طويل . لازم أبوها مش ح يسكت بعد كده . خايفه منه . خلاص ماهاش أمل . ثلاث أربع أيام ما خرجش من البيت . ينفخ ويتنهد . كل ما تحس برجله جايه ناحيتها قلبها يقف . لو يجى خليل ولو يوم واحد ، كل شىء ينتهى . فين هو ؟ فى عرضه . فى طوله . تبوس رجليه . يعمل فيها معروف » .

مضت ليال لم يغمض لها فيها جفن ، تنصت لوقع الأقدام وتظن الظنون . على أى شكل ستلقى حتفها ؟ أيختار حبلا أم سكيناً ، مخدة مبللة أم سماً نقيعاً ؟ ونسيت جميلة خليلا وصمته وكذبه وخيانته ، واقتصر اهتمامها على حياتها . لو تستطيع أن تهرب من الدار لنجت . ولكن أين السبيل وهى محبوسة ؟

« كتبت له الدور دا يا يلحقها يا ميلحقهاش . . لو ماتت مقتولة . . . يكون موتها علشانه . يبقى ما ينسهاش . . ويفتكر فى تربتها . .

آخر جواب كان بتاع النهارده . وأنا رايح المحطة الصبح فتحته وقريته ، كلمتين اثنين بس .

« خليل . . الحقنى » !

عمرى ما شفت واحد بيطلع فى الروح . ولا شفت ميت . الكلمتين دول خلوا جسمى يقشعر . . تعرف الخروف لما يشخر ويرفص وقت ما يندبح . . والفرخة لما تجرى ورقبتها مقصوفة . . كل ده مش حاجة جنب الكلمتين دول . . الجواب ده مسكته وقطعته . . الباقى اللى فى الشنطة زى الرصد قدامى . . همّا ح يكونوا أهم من جواباتها اللى ضاعت طظ ! ينفلقوا أصحابهم ويروحوا فى داهية إذا كانوا عاوزين . . جوابات سمجة سخيفة دمها بارد . . رحت نازل عليهم وهات يا تقطيع . . تقولش ساعتها إنى باقطع فى هدوم واحد بخانقه . . بغلّ . . وبعدين ما حستشى بنفسى . . دخت ورحت فى دنيا غير الدنيا . . اللى غايظنى ساعتها أن الدنيا دى حاجة سخيفة . . اتهيء لىّ أنها طرشة . . تفضل مهما صرخت فيها ماشية زى العادة . ما فيش حاجة تقدر توقفها . . ليه زى الطرشة ؟ علشان عمرها ما تبص وراها . . البنت المسكينة دى داستها وفاتت عليها . أنا لغاية دلوقتى ما اعرفش جرى لها إيه . . أكثر من كده . عمرى ما شفتها ! لكنى أنا متأكد أن البنت دى ماتت غدر . . والسبب أنا . . ما فيش حد قتل البنت دى غيرى أنا . . أنا . . »

وسكت عباس ، فخلا حسنى لنفسه . هو كالمتفرج فى السرك تهزه مخاطرة اللاعب ، وإن لم يفته اليقين أنها — ككل ليلة —

تنتهى بسلام . بيد أن عاطفته جعلته لا يتخلف عن عباس فى قصته ، يسايره فكرة فكرة ، فاهماً دواعيه ، مقدراً أحزانه وهمومه ، ويشاركه الندم ، ويرثى له كيف هوى حظه وخانته يده ؟ ويعتقد كما يعتقد عباس أنه اغتال هذه الفتاة بهفوته ، ولكن حسنى يعلم أيضاً أنه يستطيع بمجهود صغير أن يغير من نظرة عباس لماضيه ، ويعيد إلى هذا المريض ثقته بنفسه . . . ولكنه — وهو الخبير المجرب — لن يقصد إلى غرضه بمحاولته التقليل من حدته وهياجه ، أو بأن يفتح له عينيه ليريه مبالغته الظاهرة وتهويله . فهو يعلم أنه لو فعل ذلك ، لما زاد شعور عباس إلا التواء ، وانكماش فى نفسه يأكلها يأساً وندماً . . فخير ما يفعله معالج الأعصاب ، أن يؤمن بقول المريض ، لا حيلة ، بل اعتقاداً .

التفت إليه حسنى وهو يبتسم :

— « ومين اللى فى الدنيا دى كلها مسئول ؟ »

وسكت فجأة ، كأن يدا وضعت على فمه . جملة يتصيدها ليستخدمها وهو بعيد عنها ، فلما خلقها لسانه ركبته فهوى تحت ثقلها . . كصدمة ممثل ببغاء عند ما يستفيق على أن دوره يلبسه . .

عادت الحياة لوجه عباس واقترب إلى حافة فراشه !

— « طب قول لى أعمل إيه ؟ أحكى لهم فى التحقيق ع

الحكاية ؟ ولا أسكت ؟ »

ـ أحسن شيء ، تكفي ع الخبر ماجور . . »

ترك عباس فراشه . وسحب من تحت سريره حقيبة استدارت أركانها ، ومدّ يده يزيح أكواماً من ثياب مبعثرة ، ثم أخرج من تحتها رزمة رماها على المائدة : « أدى الجوابات كلها . . أحسن شيء تأخدهم أنت . . أنا مش قادر أقطعهم . . ويمكن يلاقوها عندى . . »

جمعها حسنى بين يديه . . رزمة نحيفة من ورق رخيص ...

وساد فى الغرفة صمت ، جفون حسنى لا تستقر . وانتبه الرجلان على صوت جرس الكنيسة الصغيرة يدق إشعاراً بموت .. يكاد ينطق ، فقد يعبر النحاس فى بعض الأحيان عن منتهى حزن الإنسان وألمه . .

قصة فى سجن

أزال الواجب المتكرر شعور الشاويش وهو يزج بالمقبوض عليهم إلى غرفة السجن . ولكنه مع هذا الرجل متضجر ، ملتوى الفم ، قاسى القبضة ، يتلذذ بشمه وضربه بالكف على قفاه . . لا لأن عينه تقع على ساقين غشاهما القشف ، أو لأن أنفه زكمتها رائحة كريهة تنبعث من جلباب أزرق قذر ، مرقع فى نواح عديدة بألوان داكنة — فهذه أشياء اعتادها من الفلاحين الذين يمرون عليه — بل لأنه منذ علم أن المتهم أحد جماعة الغجر الذين تطاردهم النقطة ، وهو يرمقه بعين كارهة . لم تكن نظرة رجل إلى رجل ، بل استعراض نوع راق لفصيلة منحطة . لا تقع يده على كتفه إلا تملكه تأفف قريب من الغثيان . . الغجر ! هل هم من بنى آدم ؟

دخل الغجرى غرفة السجن وعلى فمه ابتسامة يبعثها الارتباك فهى باردة سخيفة ، زادت بلاهة وطولا عند ما وقع نظره على شاب جالس فى ركن ، فرآه يبتسم أيضاً . . أشاح عنه بوجهه وقبع فى ركن آخر ، وعمد إلى التفكير فى نفسه ليتسلى . . لم يطل جموده . .

وعاد بعد قليل يختلس من الشاب نظرات سريعة أنعشت فيه شيئاً فشيئاً شهوة التحدث. فتقدم للشاب يسأله عن اسمه وبلده وتهمته . وتشعب الحديث . وجاء اسم مجرم شهير، فذكر أنه يعرفه . بل بينهما نسب بعيد . فسأله الشاب :

— « أنت بلدياته ؟

— أيوه . . أنا وهوا فى شياخة واحدة .

— أنا سامع من العسكرى بيقول لك يا غجرى . . إيه اللى لمك على الغجر أمال . إذا كنت فلاح ؟ »

وزادت الضجة فى حوش النقطة . وسمع صوت البنادق توضع فى « السلاحليك » . وأحذية العساكر ترن هنا وهناك . وجاءت « داورية » من ثلاثة خفراء . وجلسوا يتحدثون بجانب السجن ، ووصلتهما كلماتهم واضحة . وضحكاتهم كلها . اقترب الغجرى من الشاب حتى جلس بجانبه .. لم يختل بفلاح منذ مدة طويلة . وفى وحشة السجن . ووسط الضجة غير المألوفة ، شب فى قلبه عطف وحنان لزميله . وقد يكون من أثر هذه الظروف كلها أنه بدأ يتكلم غير محتد ولا مراوغ . لم يكن يقص حكايته ، بل كان يعيش ماضيه من جديد .

* * *

« كنت مستأجر من أخو العمدة ١٤ قيراط . وكان عندى

كام غنماية أطلقهم فى الغيط وقت الربيع . . لما جه النيل بقيت من غير شغل . فصاحب الطين قال لى : يا عليوى ما تروحش وانت بطال بالغنم بتوعى لغاية المنيا ، توصلهم لواحد تاجر هناك ، معرفة . ولك علىّ يا عم إنى أبسطك خالص . قلت له : الطريق واعر علىّ . قال لى : أنت واعى فى الغنم وأنا مختارك ، انت رجالى ، الطريق اللى انت خايف منه سهل . خليك مع الإبراهيمية مبحر مبحر تلق نفسك حدا المنيا . وراح الراجل اشترالى سكين كويسة وادانى حمارة ، وسلم لى ٦٥ راس . فخرجت بيهم من البلد والميه فى الحوض علو قدم . . وفضلت سايق على جسر الإبراهيمية والغنم قدامى . . ! »

. . . وليس الخروف — رغم أنه حيوان غير نفور — بسهل القيادة . فخطوته بطيئة ، إن لم تجد حثاً مستمراً وقفت . وأفراده المتفرقة لا تجمعها سوى عصا متيقظة . وكان عليوى تارة (يحلق) على السيارات المتتابعة و (يحجز) الغنم بنبوته الطويل ، وتارة ينزل فى بعض الغيطان وراء كبش شارد . وقد يلبث النهار كله لا ينطق إلا بشين يمطها ويصفر بها . ونبوته الطويل ينقر ظهور الغنم نقرات قوية تضمها فى قطيع واحد يسير ، فتثير أرجله القصيرة الدقيقة سحباً من التراب . تتوالى نداءاته (ماء . ماء .) بعضها جاف قصير ، وبعضها يكاد يتكلم . وتسمع فيه استغاثة

لا شك فيها . منها الأجش الغليظ يخرج من حلق أيبسته السنين ، وبعضها كذبذبة وتر رفيع ، تبعثها أحمال صغيرة لم يتبين لها بعد ظهر من بطن . كل سيرها وثبات جانبية ، وتناطح وهمى . يتطاير منها النشاط والمرح . فقطيع الغنم — هو الآخر — يحمل بين طياته السلسلة التى تربط الحياة بالموت !

وخشى عليوى على حمل صغير أن يضل ، فرفعه من ساقيه ، فتعانت مأمأته وتكررت . وسار به يشق لنفسه طريقاً وسط الغنم ، يضع يده هنا وهناك ، فتقع على موج من الصوف قد ألهبته الشمس ، وذاب فى عرقه تراب كثير . فهو متلاصق ساخن تحته أجسام محمومة صابرة على ألمها . حتى وصل إلى الحمار . وفتح كيساً ووضع حمله . وكان يتبعه فى سيره ويشق الطريق بمجهود أشد من مجهوده ، وبإرادة تكاد تنطق أن لن يثنيها عن عزمها شىء . نعجة هزيلة ، لها عن كل مأمأة جواب ، فيه نداء حنون تخفى تحته ولع الأم وجزعها .

ولم يكن مظهر عليوى ينبىء أنه يستطيع تحمل عبء القطيع ، فهو فتى لا يزال فى ميعة الصبا ، قد لا تلحظ العين أدلة وراثته الفرعونية : من قامة مديدة ، وصدر عريض ، إلا أنها لا تخطىء نحافته الواضحة . فليس هناك تناسب بين قدميه المفرطحتين وساقيه الرفيعتين . تحت ترقوته هبوط غائر ، قد

يكون من الجوع ، تقيم عليه عظمتان بارزتان ينتهى عندهما شعر صدره المكشوف . . وجهه من جلد وعضل مشدود ، مهما جرى لا يهتز فيه لحم . وإن حرّك فكه ، تكسر سطح صدغه فجوات وكرات . ورغم هذا كان لا يفتر عن الحركة ، تجدد نشاطه قوة خفية تسيل فى الوادى ، ولا تقل عن النيل جرياناً .. لم يفنها صنم كالهرم ، ولا قبرتها آلاف السنين .

كان عليوى يقطع المسافات ، ولا يتبقى فى ذهنه من الطريق سوى أسماء القرى أو قباب صغيرة بيض لبعض الأولياء . منهم من يعلو الجسر ليدفن البلد حوله موتاها ، ومنهم من يهبط للحوض لينعم الزرع ببركته . فعليوى — كفلاح — ولأنه يجتاز الطريق لأوّل مرة ، قليل الصلة بالأماكن التى يمرّ عليها ، لا يلفته إليها سوى مصلحة شخصية . فلم يؤثر عليه بشىء جسر الإبراهيمية ، وهو يبدو تحت تأثير شمس الصعيد المتوقدة فى منظر كريه ، تظلله سحابة من التراب المنعقد ، يمتد أمامه شريطاً ضخماً من التراب المكدّس ، مشرذم الحوافى . . يتوالى هبوطه وارتفاعه ، ويتردد سطحه غير المستوى بين الضيق والسعة . يزيده قبحاً أنه كثير الارتفاع ، فلا تبدو من الأشجار المغروسة عند سطح الماء سوى فروع قصيرة تحجب المنظر ، ويستطيع السائر أن يلمسها بيده . . منْ لعليوى بمن يخبره أن ليس كل

ارتفاع الجسر من التراب ، فى أحشائه أيضاً هياكل كثيرة من عُظام الفلاحين ، وقد يكون فيهم بعض أجداده — الذين فحتوا الترعة بطول أربع مديريات بمعاولهم البسيطة ، وربما بأظفارهم أيضاً ! ! وكان يموت الفلاح فيهال التراب عليه ، كما هو بمقطفه ومعوله ، وجلبابه الأزرق الوحيد . . أكل الجسر أجسادهم ، ومحا لحومهم ، وما على جلودهم من أثر الكرابيج .

« . . . فى رابع يوم بعد أدان العصر بشوية ، حصلت نزالى جانوب ، وكنت ناوى أمشى طوالى وأبات بالغنم فى صنبو ، لكن ما عرفشى إيه اللى خلانى أوقف الغنم قدام البلد دى . . إن قلت كنت تعبان أكدب . . يمكن علشان لقيت على الجسر وابور طحين خربان . . »

فقاطعه الشاب فى لهجة أقرب للهزؤ ، أو إنصات الرجل لحديث طفل .

— « ولا قسمتك جات كده . . »

وكان الشاب لا يزال يبتسم . . لم ترتفع عينه عن عليوى تراقب فيه منظراً مسلياً . . فمذ شعر أن عليوى يؤاخيه ، وهو يحتقره . وكلما قاطع الحديث بتهكماته ، وكثيراً ما فعل ، اهتز جسمه سروراً . .

. . . « ربنا عالم . . أنا ما صدقت لقيت للوابور سور

كبير ، رحت صافف الغنم جنبه وقلت : الليلة دى تتهنى بالنوم ، ولا حدش يهرب منك وتفضل تجرى وراه . . واستكنيت . . أدنت العشا ، جيت جنب الغنم وقلعت جلابيتى وحطيت راسى على دراعى ونمت . . لسه عيى ما دخلتش فى النوم إلا ولقيت جماعة جايين علىّ من ناحية البلد وسطهم حمارين ، وقدامهم شوية معيز ، لما حصلونى لقيتهم جماعة غجر . . قلت أعوذ بالله من دا حظ . يمكن يا واد يفوتوا طوالى . . وقمت ركنت نفسى أشوف إيه اللى ح يحصل .. جم حداى ووقفوا . . وشويه لقيتهم فارشين حوالىّ . . »

عمد رجلان إلى الحمير فأنزلوا منها أستاراً رقيقة . أمالوا الواحد على الآخر ، فإذا أمام عليوى خيمتان صغيرتان . . ودقوا أوتاداً ربطوا فيها معيزهم ، وأخرجت امرأة « حلّة » وجلست تفركها بالتراب ، ثم ذهبت إلى الترعة . وجمع أحدهم عصياً ثلاثاً فى حزمة ، ثم فردها وثبت قوائمها بالأرض ، وجاء بقدر علّقه من وسطها ، وأشعل النار تحته ، ومال بوجهه ينفخ فيها .. وبعد قليل انتشرت رائحة الشاى ، وانتبه الغجر لجارهم ... « وواحد منهم قال لى : اتفضل اشربلك فنجان ويانا . . قمت رايح وقعدت . . » ، فسأله الشاب :

— « كان بقالك زمان ما شربتش شاى ؟ »

ـ « ما أنت عارف الفلاح عبيط ، ما يقولش فى عزومة لأ . لكن أقولك الحق إنى خفت . . كل الحكايات فى بلدنا عن الغجر أنهم حرامية وخطافين ، ولهم حيل ما تجيش ع البال . أنا قلت فى عقلى : يا واد اتفرج ع الناس دول .. كانت وياهم بنت . فضلت تروح وتيجى قدامى . مخدتش بالى منها إلا لما شفت الرجالة مكشرين لها . ما حدش يكلمها منهم بلطف وإنسانية ، إلاّ كله بشخط ونطر . ساعات ترد وساعات تمشى ساكتة . ما عرفتش عملت فيهم إيه إنهم يشتموها من غير ما يسمّعوها (يا مجنونة ! ح تشوفى . . ح نوريكى). بقيت بعد كده كل ما تفوت قدامى أبص لها . » ... فوجد فيها وجهاً شديد السمرة ، يكاد يكون كامل الاستدارة ، وأنفاً دقيقاً ، على جبهتها نقطة خضراء ، وعلى ذقنها وشم غض . قصيرة القامة ، معتدلة الظهر . رأسها كثير اللفتات تنبىء عن عصبية قوية . . وكانت تخفى غضبها بضغطة ظاهرة على شفتيها زادتهما طولا وضموراً . ولما جاءت تناول الأقداح ، فاحت له منها رائحة غريبة عن أنفه . . خليط من عرق وقذارة ، وعطر فيه قرنفل وشند . ولم يشعر عليوى إلا وهو منطلق فى الحديث . . « فضلنا نتكلم . . وفضلوا يسألونى عن الغنم : رايح بيهم فين ؟ ومعاى كام ؟ . أنا خفت يكونوا بيسهونى عن حاجة ولاّ ملعوب . قلت : قوم حوش عن غنمك . رجعت

مطرحى مقدرتش أنام . . يادوبك عينى بعد نص الليل غفلت ، إلا وصحيت على نبح الكلب. وأبص ألاقى غنمى متفركشة قدام ثلاث عساكر ، خيولهم عينيها فى الظلام زى الشرر . لسه فاكرهم لدلوقتى . . بقيت مخبول أجرى وأقع . . كل ما التفت ناحية الغجر ألاقى العسكر نازلة فى الخيام هد ، والنار انطفت وبقت دخان . وسمعت الشتيمة نازلة فيهم : (يا حرامية . . يا خطافين . . يا ولاد الكلب . .) . دراعاتهم تهتز فوق رءوسهم ، يزعقوا : (فى عرضك يا سعادة الشاويش . .) . ولاكن ولا فايدة . . لموهم كلهم فى سلسلة ، وأنا فضلت أجمع فى الغنم ، لغاية ما حمدت ربنا واتلميت عليهم . . رجعت مطرحى ، جيت أشيل الجلابية وأنام ، ما أبص إلا وألاقى البنت الغجرية مكوّمة نفسها ولازقة فى الحيطة . . أقولك الحق ارتعشت من الخضة ، يا خبر أسود ! إيه التهمة اللى جيالى دى ؟ !

ــ بنت ! أنت هنا ؟ إيش جابك ؟ بتعملى إيه ؟

شاورت لى بصباعها . . لغاية ما بعدت العساكر خالص . اترمت علىّ وقالت لى :

ــ أنا فى عرضك . . دول كانوا عاوزين يموتونى . . فاكرين أنا اللى دليت عليهم . فى سرقة القوصية ، حبسونا كلنا . وأول ما طلعم سرقوا تانى . . فى عرضك خدنى وياك . . مطرح

ما تروح أروح . . بس أبعد عن الناس دول . . . »

ومدت الغجرية ذراعيها وتعلقت برقبته . لم تكن ترتعش، ولا كانت سريعة التنفس. وكل ما تغير فيها أن زالت ضمة شفتيها فبانتا متضخمتين، وانفرجتا عن سنين كبيرتين ، وتركت عينيها مسبلتين ، لعله التعب ، أو كأن هذه أول تجربة صادفها عليوى . وربما أيضاً لأنه لم يشم من قبل رائحة الشند والقرنفل عن قرب. سواء كان هذا أو ذاك، أحس عليوى بقواه تذوب بين يديها، وتراخت ذراعاه بجانبه . . وعادت لذهنه صورة هذه المرأة وهى تمر أمامه عندما كان يشرب مع رفقائها الشاى، وتذكر لفتات رأسها . ولم يكن يدرى — وإن كان قد أدرك الآن — أن لهذه اللفتات جاذبية عجيبة وسحر قوى . . وطال صمته، يعذله ضميره بأنه من آثار تربيته التى علمته منذ الصغر أن يرهب الغجر ويخشاهم . ولكنه لم يرد ذراعى المرأة ، بل أحس بعد قليل أن ما انحل من أعصابه عاد ينفر فى جبهته، ويجف فى حلقه، ويرتعش فى قلبه. واجتمع هذا وذاك على ملء عروقه بدم يغلى ويطن فى أذنيه . . وإذا بذراعيه على ذراعيها يتبادلان ضمتها . . وزاده التهاباً أنها ابتدأت تقترب منه شيئاً فشيئاً . . وكان يدفعها نحوه شعور هو خليط من الفرح والعناد . . وربما لم يكن شوقها للرجل ، بل لتذوقها لذة حريتها فى ليلتها الأولى . ثم ما إن

بادلها الرجل ضمتها ، حتى انطلقت من مكمنها رغبة قوية طالما كُبتت ، فكانت فى انفكاكها هوجاء . . ولكنها حريصة على نفسها ألا تفنى سريعاً . . فهى تضغط على حدتها وتغطى عنفها بستار من الانئاد واتزان الخطوة . . وجعلت كل همها أن تعطى للرجل ما لم ينله من قبل ، وأن تأخذ منه أكبر ما تستطيع . وكانت — وفمه على فمها — تلمع فى نظرتها ، رغم الظلام ، صورة الانتصار . ولو كان للغريزة جسد وأشرفت عليها ، لهزت رأسها رضا وافتخاراً ، ولدافعت عن نفسها بأنها لم تكن لترضى من أغلب الناس بالعبارة المحتشمة المتسربلة فى الحياء والخفر ، إلا لأنها تنقل لأفراد قلائل منهم ، وفى أوقات متفرقة ، كامل قوتها ، فيهبونها أرواحهم ، ويدعونها أن تحل بهم من غير شريك . . . ولم تطل القبلة ، لأن المرأة استيقظت وتنبهت لموقفها ، فقامت وسحبت الرجل من يده ، ودخلت من ثغرة فى سور الوابور ، وشملهما الظلام . . وكان على الكلب هذه الليلة أن يحرس مع الغنم سيده . . . . « قصره بيتت معاى الليله دى . . وقلت لها : يا بنت الحلال أنا أخاف الله . . وأحب حكم الشرع . . قالت لى : أنا وهبتك نفسى . . قلت لها : وأنا قبلت ، وإذا سمع عنى حد أقول : فلاحين كتير بيجوزوا فى البنادر بالوهبة . .

قال له صاحبه : « لا كن مش ع الجسر . . ومش مع الغجر . . »

– ساعتها ما كنتش دارى لنفسى » .

. . . لا يدرى كيف نام وهو يسرق القطيع ، فطلع عليه النهار وهو من المسوقين أمام قدر لا تفرق عصاه فى دفعها للأحياء بين بنى آدم والغنم . . ولكنه رغم هذا يشعر بأن هذه المرأة غمرته بلذة جديدة عليه ، فانقاد لها كأنه متعب ، يجد بعد جهد فراشاً وثيراً . . وترك عليوى نفسه ترتاح وتستند إليها . . لا يهمه – وهو فى هذا النعاس المعسول – أى قيد غلّلته به . . ما دام تيار الحيوية الذى استيقظ فيه – ولا يستطيع بعد ذلك كتمانه – لن يجد فى غيرها مصباً يتدفق فيه ويزخر . . ونسى عليوى من أيامه ما مضى . وقصر همه على الساعة التى هو فيها . . وفى الصباح كان يسير وراء القطيع وهو لا يزال مدهوشاً . .

. . . « مشينا تانى فى الفجر وأنا مدروخ . . حصلنا ديروط . . لا . . لا . . . نسيت . . بعد ما مشينا شوية بصيت على الكلب ما لقيتوش . . رجعت أدور عليه . لقيته جنب شجرة بيطالع فى الروح . . . » راقداً بمؤخره على الأرض ، رافعاً رأسه على مقدمين مرتعشتين ، يهتز جسمه متشنجاً . . وحدق الكلب فى صاحبه ، ولمعت فى عينه لحظة بارقة أمل ، ثم أطفأها سريعاً حزن عميق صامت . . لم ير من قبل عيوناً تبكى مثل عينى الكلب الجامدتين ، وكانت تكلمه وتقول :

(هل هذه آخر مرة ترانى ؟).وفتح فمه . . ولكن الموت كان قد انتهى ، ووضع يده على هذا الفم فلا يستطيع نباحاً . . وانحدرت بدل الصرخة سيول من لعاب لزج ، تنبىء عما فى جوف الحيوان من غليان وألم لا يعلمه أحد . . لم يفهم عليوى سبب الحادث . . لعلّ أحداً من الناس ضربه . . وكم من فلاح يضرب الكلب الغريب بقسوة ، أو لعل صبياً قذفه بحجر . هذه الشهوة التى تتمثل بها أول فكرة إجرامية فى رأس الطفل . . ومد يده يتحسس ظهر الكلب فإذا هو سليم . . وشعر بالغجرية بجانبه .

. . « جت قعدت جنبى تتفرج . . بصيت لها قالت لى : (سموه . . كانوا عاوزين يسرقوا غنماتك وأنت نايم . . جم أجلهم قصير ، وراحم فى ذاهية . ما تزعلش ، بكره تلاقى غيره ، وعلشان خاطرك أنا جبت لك منهم معزتين هما دول اللى فى الوسط . قلتلها : بتوعك المعزتين ؟ قالت لى : لا ، بتوعاتهم . . »

فقاطعه الشاب من جديد .

— « أهى غنيمة وجاتلك بلاش . .

— لا والله . . مارضيتش أبداً أخدهم لكن أعمل إيه . . »

إن استطاع كلبه بين يدى الموت أن ينبح ، فليتكلم هو بين يدىّ التى سلبته عقله . . ولم يكن شىء أنطق بالاختلاف بين الطبيعتين ، من الابتسامة الخفيفة التى تمشت على فم الغجرية ،

تقابلها تقطيبة ظاهرة على جبين الفلاح . . وخفتت رعشة الكلب شيئاً فشيئاً حتى تلاشت حركته. وتجرأ الذباب على فمه وعينيه . . وقام عليوى ليعود إلى قطيعه. وقد تنازعته حسرة على كلبه يتركه وراءه. ووجل من المعزتين تسيران أمامه، ويتمثل فيهما أول جرم ارتكبه فى حياته . وهو الذى عاش طول عمره يرهب النقطة. ويرتعش أمام العمدة. ويحيى العساكر باحترام . .

« من أول يوم لقيت الغجرية شاطرة . . حوشت اللبن اللى تحلبه وباعته، وكنت الأول أحتار فيه، وفطمت لى كام حمل! وخيطت على النعاج كل واحدة كيس . نسيت هم المعزتين وقلت لنفسى : بكره يا واد ترجع لبلدك وتربى غنمك، وإن كان معاك واحدة شاطرة زى دى، ليه ما تقبلش غنم الناس لما تودعها عندك وتسرح بيهم ! ! بكره رزقك يا واد يتسع .. وربك كريم.

« بعد كام يوم حصلت ملوى، ولقيت فى مدخل البلد أرض بور. رحت سايب فيها الغنم، وجيت عالجسر قبالة قهوة وقعدت .. البنت غابت تحت مع الغنم . . كانت ليلة من أولها مقندلة زى الزفت . . ما اعرفش جرى للبنت فيها إيه . انقلبت علىّ فى الصبح قلبة واحدة . . . »

نزلت الغجرية تجول بين النعاج بخطوة بطيئة. لا شىء يدعوها للبقاء مع القطيع . ولكن لا شىء يدعوها أيضاً للرجوع إلى عليوى .

بدأت تمل معيشتها الجديدة الواضحة تسير فى طريق معلوم، وعادت تحن لتجوالها القديم . كل لذتها أن تطارد من بلد إلى بلد، ولا تزيد صلتها بمكان أكثر من ليلة . زالت الفورة، ولم يبق من عليوى سوى رجل هادىء تستطيع أن تثق بطيبته، ولكنها مع ذلك تندم على حياة نصفها محبة ونصفها عداء . فالغجر أنانيون لا يقبلون الغريب بينهم . وقد ظلت تخضع لرجل منهم، لا عن حب بل عن اضطرار، وكانت تجد لذتها فى الصراع الدائم بين شدة مراسها وحقد أضغانها . وأى لذة أكبر من أنها لا تخضع إلا بعد أن يعلو إلى فمها فيكاد يغرقها تيار ينسيها حقدها ، على عظمه ؟ ! وكلما وافق الاسترضاء نقطة الانكسار، تمتعت النفس بأقصى حدود النشوة . أما الآن فهى تخضع، سواء أكان التيار إلى قدمها أم إلى ركبتها . لا تعرف لذة الشبع، لأنها حرمت لذة الجوع . لم تكن تبغض عليوى، ولكنها كانت تتمنى لو كان من الغجر . .

قطع تفكير الغجرية نور مصباح يضىء على الجسر حيث يجلس عليوى ، وبدت لها قهوة فى وسطها — وتحت المصباح — دكة خشب عليها رجل بيده ربابة ينشد . . فنسيت أفكارها وجاءت تستمع لقصة (حبس مرعى ويحيى ويونس ، عند الزناتى فى تونس ، ورجوع الأمير أبو زيد إلى الأطلال). وتوالت

صرخات الرجل ، تهدأ عندها همهمة الجالسين ، وكلهم أصاخ بأذنه للقصة وللأشعار . وكلما تقدم الليل ضاقت أنفاس المصباح ، يزيدها اختناقاً حلقة كثيفة من ناموس كالتراب انعقدت حوله رغم دخانه المتصاعد . ولف الكون سكون شامل ، وكانت السماء فى ظلامها كأنها جناح وطواط حط على العالم . له بين الحين والآخر رعشة خفيفة . . هى سبب هزة هذه النجوم القليلة التى ترتجف ثم تثبت . ولم يستطع المصباح بأزيزه ، ولا المنشد بربابته ، أن يبدد بعض ما فى الكون من حزن جاثم .. هل الليل جثة النهار ، فيكون هذا الحزن أنشودة الموت ! ! أم العالم فى أسى ، لأنه يشعر أنه يفنى شيئاً فشيئاً ! ! أو ربما كان من تأثير انعكاس ما يجول فى هذا الفضاء من آلاف الأرواح الشرقية التى خلقها الله حزينة موجعة القلب ! ! وربما كانت هذه السماء ذاتها إذا ظللت الشمال ، عنوان البهجة وامتلاء النفس بالرضا والجذل ، وأصبحت هزة النجوم رقصاً ! !

وثقل هذا الجو على الربابة ، فهى تئن بصوت متشابه . ووقف العالم كله فى ناحية ، والربابة فى ناحية أخرى ، ودار بينهما حديث ، وأفضى كل منهما للآخر بأسراره . وبلغ تأثر السامعين بالقصة ، أن غاب المنشد عن نظرهم وتجسم لهم أبو زيد جالساً على الدكة يصرخ فيهم صرخاته الحربية . واختلطت

الأزمنة فى أذهانهم ، لا يدرون أهو الذى بعث ليقص عليهم وقائعه ، أم هم الذين نقلتهم يد سحرية إلى عصره السحيق ! ! واختار الشاعر قصيدة يعلم من تجاربه أنها تؤثر فى السامعين ، واختتم بها ليلته ، وكان آخر ما تغنى به :

على ماجرى ياويح قلبى لماجرى ... والبين قيدنى بست قيود !
مما جرى لى من هموم تكيدنى ... وقت إيش ياذاك الزمان تعود ؟
نطق لسان الحال عن الدهر قال ... لى : زمان مضى ماعاد قط يعود !
ياعين ! إبك على الزمان اللى مضى ... وأجرك على الله الواحد المعبود !

هل كان يعلم الشاعر المجهول وهو يصف آلام أبطاله أن شعره سيقابلها على الجسر فتتلقاه كضربة السكين ؟ ربما كان يعلم هذا وأكثر منه ، وإلا كيف تكلم عما فى ضميرها كأنه يعرفها من قبل ، وعاشرها واستمع لشكواها مراراً ! ! ودمعت عيناها — ودموعها غزيرة — على كره منها . ثم استيقظت حدتها وشدة مراسها ، وكبتت همومها ، وقامت تنام وقد اعتزمت أن تنفذ الفكرة التى تشاغلها فى الأيام الأخيرة . .

« صحيت من النوم لقيتها ماشية ع الجسر وجلابيتها تحت باطها . كانت ماشية بشويش ، لكن فهمت طوالى أنها هاربة منى . . رحت جارى وراها ، حصلتها ومسكتها من دراعها :

— رايحة فين ؟

— ماشية . .

— ماشية فين ؟

— مغربة للجبل . يمكن اتلم على أهلى هناك . .

— لوحدك ؟

— أيوه، خلينى فى سكتى وخليك فى سكتك .

— يا بنت الحلال، أنا قلتلك إن الغنم مش بتوعى، صاحبهم فى المنيا، وبينا وبينها دلوقتى فركة كعب، وأنا راجع وياك طوالى للبلد .

راحت قايلالى طوالى :

— تغور بلدك باللى فيها » .

حدق الشاب فى عليوى كأنه ينتظر منه غضبة الفلاح يقبل كل شىء ولا تسب عشيرته ، ولكن عليوى فى الوقت الذى يتحدث عنه، كان قد فصله عن أهله وعشيرته حاجز رقيق . لم تثر الإهانة إحساسه، فبلعها . . واستمر عليوى فى حديثه :

— « قلت لها : بلاش نروح للبلد. طب نروح مطرح ماتحبى

— تعال وياى .

— والغنم ؟

— هاتهم معاك .

— مش بتوعى !

راحت لاوية وشها زى اللى زعلت من الكلمة دى . ومشيت تانى ، وقربت تغيب عنى . . كل دا والشيطان بيلعب فى عقلى».

وقف عليوى وكل عرق فيه نابض متيقظ ، أسكرته حدته فطاحت رأسه ، يقع نظره مرة على المرأة ومرّة على القطيع ، ووقف الشيطان أمامه ممسكاً بالميزان يبتسم له .. ثم هوت كفة المرأة . .

. . « ورحت صارخ فيها :

— هوى . . هوى . . أنا جىْ .

وجريت للغنم ، حاودتهم من ع الجسر لصليبة مغربة للجبل . ومشينا مش عامل للدنيا حساب . . ومانيش عارف أخرتى ح تكون إيه . .

فى الليلة دى شفت منها حاجة عجيبة . . كنا فايتين على عزبة ، لقينا فرخة فى الطريق عما تلقط . . راحت البنت طلعت من جيبها خيط طويل مربوط فى آخره حباية درة ، ورمتها قدام الفرخة ، راحت لقطاها . . ووقفت فى زورها . . قعدت تحك منقارها فى الأرض ، عايزة تصرخ مش طايقة ، والبنت سحبتها شوية بشوية وحاطتها تحت باطها ، وتوْ ما بعدنا عن البلد دبحتها .. حصلنا الجبل . . . »

— « استنى . . مين اللى أكل الفرخة ؟

— أكلناها سوا .

— واشمعنا ما عملتش البنت الحيلة دى قبل كده ؟

— أنا عارف . . دى كانت نازلالى بالسم . . وأنا بقول يا سابل سترك . .

— أيوه . . اللى يسرق خمسة وستين راس يزوّر فى فرخة ! ! »

فصمت عليوى وارتفعت له تنهدات طويلة . . وكان القمر قد غاب ، ووصل إلى غرفة السجن المنفردة فى وسط حوش النقطة بصيص من مصباح معلق على بعد . وتوالت دقات أرجل الخيل قوية على الأسفلت ، ونهق حمار بجوارهم ، ثم هدأ الجو من جديد ، وعاد عليوى لقصته ، منكسر القلب ، قد زال حنانه لزميله ، فكان منكمشاً فى نفسه يقتضب حوادثه . . لم يكن يحيا ماضيه ، بل كان يتذكر بجهد بعض ما جرى له . .

. . « قابلنا فى الجبل جماعتها . . واختلت بالكبير بتاعهم شوية . . الله أعلم اتكلموا علىّ ، وشفتها بتشاور على الغنم ، والراجل بيبص وياها زى اللى بيعدهم . . . مشيت وياهم . . بعد يومين ولا تلاته ، لقيت الغنم نقصت راس . . الحق دمى فار . . مسكت البنت وقلتلها : « اللى عاوز يفقد حياته يقرب للغنم . . »

قالت لى : « إحنا دلوقت غجر مع بعض . . كل حاجتنا ويا بعض » قلت لها : « غجر مش غجر أنا مافهمش الكلام دا . . »

راحت لاويه بوزها علىّ وقعدت ماتكلمنيش . جيت لها بعد يومين وقلتلها : يا بنت الحلال أنا بعت أهلى وشرفى علشانك . . مالت لى تانى ، لكنها كانت بتطرخم علىّ .. وكل ساعة تقول لى : ما تخافش على غنمك الغجر ما يسرقوش من بعض . . برضه ألاقى الغنم كلما نقرب على سوق تنقص راس ولا راسين . . كدبت علىّ . . »

— «هى ما كدبتش عليك . . أنت عامل نفسك غجرى ، وهما مش عاملينك . . علشان كده بيسرقوا منك . . دانت نهيبة لهم . . نهيبة حلال» . . « . . صفصفت الغنم على عشرة . . على خمسة . . قلت ديهده يا واد ؟ ح تطلع بلبوص والا إيه ؟ وفى ليلة استغفلتهم وقمت قبل الفجر ، ورحت جارر اللى فاضل ، ومشيت للسوق بعتهم وانفضيت . . »

— « استغفلتهم ؟ همّا الغنم مش بتوعك ؟ »

لم يجب عليوى واستمر فى قصته :

« .. من قيمة جمعة أخدونى هيلة بيلة وسرقوا .. وسرقنا سوا.. كيس قطن من غيط . . امبارح بالليل مسكونا . . » .

وكان لا بد أن يتذوق عليوى بعض ما يلقاه الغجر من الإهانات والمطاردة . وجاءت الليلة التى خبر فيها كيف تهجم الخيل ، ويقع السوط ، ويوضع القيد فى اليدين .. ولكن صحبة الغجر

جعلته يستقبل الشتم والقيد والكرباج مطمئناً . . منذ سنة شاهد ما جرى للغجر . . فكان جزعه — كمتفرج — أكثر منه اليوم، وهو مضروب يسير مكبلا بالحديد للنقطة . . سنة مرت عليه لم تفن من عمره قدر ما هدمت من أخلاقه وعاداته . . كان فلاحاً يهمه النيل والعمدة والنقطة وحدود أرضه يقيسها بالشبر وبالأصبع ، أما الآن فهو غجرى لا يهمه سوى اليوم الذى هو فيه . . الدنيا كلها أمامه لا حدود لها . . إن استطاع أن ينال منها شيئاً فليخطف . . وهو سعيد .

وسأله الشاب من جديد :

— « والعساكر جابتها وياك ؟

— البنت ؟ لا برضه هربت .

— على الله ما تلاقيش الدور دا واحد تانى تجيبه الأرض . .

— لا . . حتلاقيه منين؟ أنا توْ ما اطلع أخرج أدور عليها » .

لم يسخر به الشاب هذه المرة بل تثاءب وتمطى ، ثم رقد على الأرض . وقبل أن ينام أنشد بصوت منخفض ، دون أن يتغنى ، هذا الموال :

تقدر تسيب حبيبتك ؟ وإن كانت ياعين . . ساعتك
ولا جـابت المر وفـ الكاس دوبتهولك . . وسقتك
ولا رفعت عليك عصايه وقدامها . . يا ميت ندامة ساقتك
ليلى ليلى يا وعدى . . .

أبو فودة

يوم وقفة العيد خرجت من (المركز) « شحنة » المساجين الذين قضوا ثلاثة أرباع مدتهم ، فضاق الشارع بحلقات الأهل والأحباب تتخاطف نصيبها وتلتف به . كادت الزحمة تزول ، وجاسر هنيدى لا يزال مكانه . ليس فى المساجين غيره من بنى شقير . لم يكن فى انتظاره أحد . فلم يبق له من الأقارب سوى ابن خاله إسماعيل ، وآخر مرة رآه كانت قبل خمس سنوات عند ما زاره فى طره . لم يكن مبتئساً ولا حزيناً ، ولا خطر له أن يتساءل هل إسماعيل حى أم ميت ؟ فهو مشغول بمراقبة ركاب الحمير والسائرين ، يلاحقهم بنظرة خالية من الفهم وإن كانت حية ، يشد الذهول فمه إلى أذنيه ، ولكن ابتسامته لم تولد بعد .

بعد برهة سار يقصد البندر . لم يصل وابور الطرزى حتى وقف من جديد يراقب جمعاً أغلبه نساء حافيات وسطهن غازية ترقص حول قلة . جاءت فوقها تغطيها بملابسها وقعدت . ثم قامت ، فإذا القلة قد اختفت معها ... على وجوه المتفرجات سعادة صادقة وإعجاب : كيف استطاعت ؟ ويسأل

المتفرجون : أين وضعتها؟والراقصة لا تزال على شخلعتها وتقصعها ، تملأ الجوّ برنين الصاجات .

وخرج من الوابور عدة نساء قد علق الطحين بوجوههن . على رؤوسهن قفف كبيره لا يحملها إلا مثل رقابهن الغليظة ، فقابلهن المنتظرات بزغاريد عالية .

فى هذه اللحظة لمست كتفه امرأة ، لم ترفع نظرها عنه منذ أن وقف بجانبها ، ولكنه فى شىء من الإلهام بادرها :

— « الطحين ده لفرح من بنى شتير ؟

— أيوه . . انت مش ابن المرحوم مبارك حاج جاسر ؟

— أهو أنا . . النهارده بس خرجت » .

احتاط الشقراوية ببلدياتهم ، وتلفت وجه لوجه ، وتنقل همس من فم لأذن ، فإذا من الرقع المتعددة ، تنشر من جديد فى ثوب خلق ، حادثته القديمة .

جاسر عامل فى محجر أبو فودة ، أمل أبيه الرجل الطيب الشيخ مبارك . ولكن نزق الشباب يقوده فى معظم الليالى لمنفلوط ، يصرف وهو مخمور كل مكسبه على حميدة : فتاة تقودها للفحش المتستر أمها العرجاء . هو فى الجبل شرس ، شكس الطباع ، يعجب بقوته ويزهى بها على زملائه . كلما اجتمع العمال ، ولا يعدلون بطبيعتهم عن الدائرة والقرفصاء — كان هو بدون مجهود

واسطتهم ، وقامته تعلوهم . لهم جلسة يومية عند سفح المحجر ينتظرون المعدية . كان المحجر فى هدوء لا يشعر بوجوده ولذته إلا من خبر ضجته . وجاسر يحكى لهم شيئاً يضحك ، فهو يصف لهم خناقة له مع رجلين على الجسر انتهت بهربهما . . وعن ثور هائج مسكه من مقوده وأوقفه . أيكون أقوى من هذا الحجر الذى يرونه أمامهم ؟ إنه يراهن من شاء منهم أنه يرفعه من مكانه . . وقفوا حوله ، ومال جاسر ، وباعد رجليه ، واحتضن الحجر ، يتمايل على الجنبين وهو ينقل يديه ، يتفحص خصمه ، ويصل بين روح الحجر وروحه ، وانتفض نفضة كتمت نفسه ، فامتقع وجهه ، وبرزت عروق رقبته . . . ولكنها ماتت فى جسمه ، والحجر لم يتقلقل ، وجاسر منكفىء لا يتنازل عن محاولته .

لم يطل الصمت ، قطعه صوت من بين شفتين كله احتقار واستهزاء ، عدل بالأنظار جميعها عن جاسر إلى متولى : شاب واقف فى المؤخرة ، صغير الرأس ، أعنق ، أذناه لاصقتان على طرفى قفاه . . وأردف :

— « إذا كانت حميدة هى اللى أخذت قوتك ، أحسن تسيب الحجر لراجل . . دا تقيل عليك . . »

أظهر التحقيق أن للقتيل علاقة بحميدة ، ولكن لم يثبت إن كان جاسر على علم بها . واختلف الشهود ، لا يدرون هل كان

القادوم فى يد جاسر، أم خطفه من أحد الواقفين ؟ أخذ متولى الضربة وارتمى على الأرض ، له حشرجة سريعة متكررة يوقفها حيناً بعد آخر ، صوت حلق يابس يشرب ماء متدفقاً ، هو سيل الدم ينزف على سَر من مخه إلى جوفه .

ولكن وحشية هذه الحادثة لم تقو على خمس عشرة سنة تفل أصلب الذكريات . وأخذ الشقراوية ، عند ما نفد تهامسهم يحيطون بجاسر يهنئونه . فللفلاح مبادرة من قلبه لاثنين : حاج يعود، أو مسجون يطلق . سلسلة من مظالم لا يعلم أولها، هى التى لا تبخس قيمة الطليق عند ما يعود .

وفوق ذلك، فإن منظر جاسر يدعو إلى أن ترق له قلوب بلدياته . لم يميزه الذين يعرفونه منهم إلا بصعوبة . فقد تركهم شاب حليق قوى الذراعين، وإن كان محنى الظهر قليلا ، يمشى يهد الأرض . وأمامهم رجل فى ذقن قد عفرها الشيب ، هزل وجهه، فعرضت عظمتا خده عن عينيه . ربما تكون قامته قد اعتدلت ولكن كتفيه تقوستا . . مشيته على الأرض زحف كأنه يسحب معه ثقلا .

وسار الموكب بأناشيده، وجاسر فى المقدمة . قد ولدت له الابتسامة، فإذا هى ضحكة عريضة تبين عن أسنان غليظة .

وجهه يتهلل عن بشر صادق . فى نظرته لذة تمتع ورضا لا ترى إلا فى عينى طفل .

على أن أحداً من المحيطين به لم يفهمه . ليست ضحكته من عودة حريته وحدب بلدياته عليه ، بل المفارقة تملأه سروراً . . ها هو — من غير أن يحتسب — يعود لبلده فى زفة ! لم ينلها أحد من المسجونين الذين سارعوا بالتفرق عنه وتركوه . . يذكرهم فى سره ويضحك .. فآ كل طبخته ،خير فكاهة لمن تنزل عليه المائدة !

وجاسر ذكى ، مهما قالوا عن قساوة قلبه زمن حادثته وعن وحشيته فى طره ، يصبح فى مثل هذه المواقف حيواناً كامل الإنسانية ، يرق قلبه ، وتنفتح نفسه ، ويقبل على الضحكة بشغف ، ولو وجدته فى أضيق المواقف .

جىء به من الجلسة بعد سماعه الحكم وأودع عربة السجن . وجد بجانبه شاباً صغير الجسم مسود الأصابع . ربما كان جزمجياً أو طباعاً . سأله الشاب :

— «طلعت بكام .

— خمستاشر سنة . . أشغال شاقة .

— فى طرة ؟

— فى طرة ولا أبو زعبل . . زى بعضه . .

— ح تنحت الحجارة فى الجبل طول النهار ؟ يا خبر أبيض ! الله يكون فى عونك . . »

أدار الحجار وجهه للشاب ، فإذا عليه نفس التهلل والرضا واللذة التى تنطق بها عيناه وضحكته الآن وهو يسير فى رأس الموكب .

الضحكة واحدة رغم بقائه خمس عشرة سنة سجيناً . قد تكون لعبت بجسمه ما شاءت ولكنها لم تمس روحه . وها هو يعود كما كان ، شاباً نفسه متفتحة للحياة ، ولا يدرى أحد الآن — بعد هذا الغياب — ما مقدار جوعها رغم هزاله ، وما بين قدميه والأرض من نضال .

ودخل الموكب البلد ، ووصل الخبر إلى إسماعيل ، فجاء بذراعيه يجرى إلى ابن عمته : شاب مصفر الوجه متردد متلعثم ، أربكه وصول جاسر . وقفت زوجته تنادى الجيران تشحذ منهم دستاً ، وأخذ هو يجرى هنا وهناك ، حتى استلف ثمن رأس سكر ، وخرج يسقى الشربات للجيران وقد تجمعوا عليه يهنأونه هو . . فى سرّه يقول :

— « أهى مصيبة ونزلت علىّ » .

وهبط الغروب على البلد ، وأخذ كل يعود لداره بدوابه . وأغلقت الأبواب ، وهمدت أجسام أضناها الشقاء . ونعست جفون .

ولما هدأت الضجة ، سمع فى قبلى البلد نواح ضعيف ونهنهة . . هى أم متولى : جاءها خبر عودة جاسر فجدد مناحتها .

* * *

ثغرة فى جدار الحوش السماوى تصل منزل إسماعيل برحبة مسوّرة كان أبوه يخزن فيها حطبه ويربط جاموسته . ولما أكل الابن ماله ، بقيت مهجورة تجرى فيها الكتاكيت ، لها باب من خشب الصناديق يفتح على أرض نخيل مهملة .

فى ركن منها مسقف بالجريد ، نزل جاسر مؤقتاً حتى يجد عملا ومسكناً . وفى البلد عُرْف ، لا يقر منزلا يجمع رجلين وامرأة . . فجاء إسماعيل بحزمة من البوص فى قامة الرجل وسد بها الثغرة . . وحلوق الجيران . ليس لهم بعد ذلك ما يشكون منه . ولكن فى قلب إسماعيل يقيناً بأنها «مصيبة ونزلت عليه» . ماذا تفعل فى جاسر حزمة البوص ؟ هو منذ الصغر يتحاشاه ويتهرب منه . طبيعتهما ضدان . مال جاسر إلى الخمر ، وعمد إسماعيل إلى الأفيون وحسن كيف . خشونة الأول جرته منذ الصغر إلى المحجر ، وأتلف الثانى ما تركه له أبوه وهاجر من البلد . رأى جاسر فى إسماعيل أنه عبيط خام . ويشكو إسماعيل لكل من يعرفه عن شقاوة ابن عمته وأذيته لخلق الله . .

ولو كان متزوجاً من غير نرجس لهان عليه الأمر . فهى

امرأة (بحراوية) يعلم الكل عنها أنها (نتاية)، أكثر فهماً لطرق الإغواء للرجل من فتيات البلد . يقولون إنها سبب فقره، لأنه يجرى وراء ذيلها، ثم يحسدونه فى الوقت نفسه عليها . فى ضميره وسواس دائم أن هذا الحسد يخفى تحته نوعاً من الاحتقار، كأنهم يستكثرونها عليه . إيمانهم بأنه تحت قدمها، هو الذى يقلل من الإشاعات التى تصل إلى أذنيه عما تفعله من ورائه. وهو الآن لا يستطيع الثقة بإخلاص زوجته ولا بعفافها ، ولكنه يعيش كما يعيش زوج كل امرأة خليعة — إذا كان يهواها : تأجيل مستمر لليقين ، واستساغة دائمة للبقاء على الشك .

وزاد من هموم إسماعيل أن جاسر يهبط عليه فى وقت توقيع الحجز (على بياضه)، وغرقه فى الدين لرقبته، وحرصه على «ربعين ذرة » يقيمان مع المش والبصل أوده .

* * *

ظل جاسر فى أول الأمر بعيداً عن التفكير فيما وراء حزمة البوص ، فقد اتخذ من ركنه منامة لا يأوى إليها إلا مع الليل . فى أول أيامه أخذ يتجول فى البلد والغيطان ، وزار منفلوط مرات متوالية . ثم ترك ذلك كله و (تزبن) على دكان خليل، حيث وجد من العجائز وبعض ضيّع الشباب أصدقاء يتناوبون شرب أقداح شاى معكرة كالحبر .

فى هذه القهوة سمع عن خيبة إسماعيل فى زواجه من هذه البحراوية . هو رجل « هايف » لا يعلم من ملاعيب زوجته شيئاً ولا هم يعلمون ؛ ولكن ليست على عيونهم مثل عينيه غشاوة . ماذا تفعل فى البندر يوم السوق ؟ إنها تزوغ من وسط بلدياتها وتختفى من أول النهار لآخره .

أخذ جاسر — وقد ملأت هذه الأحاديث أذنيه — يسارق نرجس النظر . لمحها مرات قليلة تروح وتغدو فى دارها . ثم رآها تسير يوم السوق وقد شدت طرف طرحتها على نصف وجهها ، ولكن العين الوحيدة التى وقع نظره عليها كبيرة واسعة ، متلفتة ، تجوب ما حولها فى لحظة ، وتفهم التيارات الموجهة إليها فى غمضة .

وتربص جاسر إلى أن وافقه يوم خرج فيه إسماعيل مبكراً إلى الغيط ، ودخل الدار فوجدها بجانب الفرن . شفته السفلى متضخمة قد تدلت ، وعيناه جشعتان :

— « صبحت بالخير يا نرجس .

— صبحك الله بالخير . . ابن عمتك تويه طالع للغيط » .

الحوش سماوى يكشفه الجيران ، فاتجهت نرجس إلى غرفة صغيرة منحدرة ودخلتها ، فجاء جاسر ووقف على بابها . لم ير فى مبدأ الأمر شيئاً ، ثم اتضح له بعد وقت حبل عليه ملابس نسائية

عديدة كلها فى ألوان مبهرجة ، تزينها دنتلا وشرائط وتطريز وزركشة .

وقفت نرجس تنظر إليه . هو موقف مناجزة وقياس قوة بقوة . فهى أبعد ما تكون عن القروية الرعديدة التى لا تخلو مع رجل إلا وملأت رأسها فكرة واحدة : أنها عرضة لهجومه . وأن انتصاره عليها لا يتوقف على إرادتها . بل على الظروف . فلو كانت ملائمة له خيم عليها جو من التسليم والعجز ، وقد تناضل قليلا ولكنها تنتهى دائماً بالخضوع . وأغلب الأمر أنها تنسى نفسها وتشترك فى النهاية فيما أكرهت عليه . فهى تعيش طول عمرها ونظرها لنفسها أنها مطفأ شهوة . لا يربطها بالرجل إلا قانون واحد : أن تحرك — من بُعد — من شهوته دائماً بحيث لا تخبو لها نار . لا تقدم ، ولكن إذا رغب ، عليها أن تعطى .

وكان وجه جاسر أدكن اللون . يفيض من عينيه خبث غير جبان .

— «يعنى غبت يا نرجس فى السوق السبت اللى فات ! ! »

لم يكن استفهاماً . بل لهجة انتصار تحتها تهديد . .

— «عبال ما بعت الفروج . .»

وأقبلت مرتبكة على ملابسها تطويها . . فهى تعلم أن تطلع جاسر لهذه الأثواب سيورطها . على أن أحداً من أهل البلد لم

ير هذه الملابس . حتى ولا أحب جيرانها إليها .

وضحك جاسر بهدوء وكأنه يهمس لنفسه .

— « والله إسماعيل متهنى ! ! »

وجلست نرجس تصف الملابس فى صندوق أحمر . . هى ثروة لامرأة لا تبدو فى الطرق ، ولا يراها الناس إلا فى جلباب أسود يهبط إلى قدميها ، أبيض الذيل يكنس التراب ، فنرجس تموت على ثوب جديد . لا تفرط فى جلابية مهما قدمت . أغلب هذه الملابس من أيام زواجها فى بلدها (موش) .

نزل إسماعيل بهذا البلد بعد أن ترك السلطة . يعمل لدى أحد المقاولين . ووصله عن نرجس — وكانت إحدى جيرانه — أخبار خلاعتها ، وطمع أن يتزوج من بحراوية مثلها . فهو بعد تجواله فى مصر والشام ، لا يقنع بامرأة من بلده . فى هذا الوقت جاءه تعويض السلطة ، وأخذ يصرف الجنيه وراء الجنيه حتى استلفت نظرها . فتحايلت على زوجها إلى أن طلقها . واندلقت على إسماعيل وقد بهرتها ثروته . تزوجته . ولم تلبث يدها أن نفضت جيوبه فى شراء ملابس من كل صنف ولون . وانتهى العمل ونفد التعويض ، فعاد إسماعيل لبنى شقير يرتزق من إيجار فدانين ، ويعيش عيشة فلاح لا يعرف النقود إلا وقت المحصول .

فى أول الأمر لم تنقطع شكاية البحراوية من غربتها وعدم

قدرتها تحمل الفاقة التى وجدت نفسها فيها . فاسترضاها إسماعيل جهده ، وحرم نفسه من كل شيء ليجد ما تشترى به « الكستور » و « البرنس عزيز » . وجاءت سنوات خاسرة ردت إسماعيل فلاحاً لا يجد سوى جلبابه الأزرق يعيش صدره ويرقع ظهره مرات . وعاشت زوجته بصندوقها ، لا تتنازل عن مطمحها أن يزيد ويغتنى . توهمه أنها تشترى بعض ما يراه من ثمن ما تبيعه من بيض دجاج تربيه . والحقيقة ، وهى البحراوية المجربة ، كانت لأجل هذا الصندوق تفرط فى نفسها بمنفلوط يوم السوق لأحد مشايخ الخفر . وتوصلت على يديه ، وارتقت إلى معرفة بعض شباب الموظفين . ولأجلهم كانت إذا خرجت تدس فى قعر قفتها — تحت البيض وربطة الكتاكيت — الجلباب الذى يروقها . بعضهم يقنع به . وبعضهم تدفعه الحاجة للمرأة ، ويأنف من ثيابها وقدميها . فيحمّيها ويلبسها من ملابس الرجال .

وأتقنت البحراوية دورها ، فهى تباعد ما بين جريمتها وبلدها ، وتتصل بوسط ليس من الفلاحين . ولكن الفحش لا ينكفىء عليه مأجور ، وفاحت رائحة سيرتها ووصلت فى بلدها إلى أنوف خلقت تتشمم الجو .

وخرجت نرجس من الغرفة ، فأمسك جاسر بيدها وأراد أن

يدفعها بجسمه ويدخلها الغرفة ، ولكنها انفلتت منه وكرت إلى الفرن ، فتبعها جاسر ومال عليها يقول :

ـ « حرام عليك . . أنا بقى لى خمستاشر سنة . . »

واستند على الجدار ، وشعر بشىء يجذبه للأرض ، تنفسه سريع وعيناه مشتعلتان . استيقظ فيه وحش طال رقاده ، فلما همّ يقوم لم تسعفه قوائمه . هو هائج تجمعت قوته فجأة ، ولكن لا يزال فى (دوخة) اليقظة .

وجلس جاسر القرفصاء . . وجسمه كله يرتعش . . ثم مالت رأسه وضمها بين ركبتيه بيدين متصلبتين . . وتملكته هزة متكررة .

نوبة تشنج صرعته . . .

أسرعت نرجس للزير ، يلاحقها من جاسر شخير يلمسها فى أذنها ويتسرب إلى أعصابها ، وعادت إليه تهم بصب الماء على وجهه . . ولكنها عدلت . . لا يزال هذا الشخير يأسرها . لا يعلم أحد ما الذى أثار فى ذهنها . . لعلها ذكريات حوادث قديمة . . كانت فيها عبدة قن لجسمها . . فى أول شبابها كانت تسكر فى بعض الأحيان من عرق البلح وتنسى نفسها . وعند اليقظة تحس بأثر مجهود صوتى فى حلقها . . .

ألقت الماء على وجهه فشهق .. ورفع رأسه ، فإذا ببصره يقع

على عينين كلها خضوع واستسلام . . ربما سحرها ما رأته من القوة تنفجر وتصرع رجلا . وربما كان ما رأته فى حالة جاسر من رغبة صادقة ملحة . . من أجلها هى . . ولكن لا هذا ولا ذاك . إن هو إلا قدر محتوم يهبط على الخلائق ، فى حواشيه حوادث تسمى مرة مصادفات ومرة موجبات ، وما هى إلا نغمة من نغمات الكون فى دورانه . . ليس للإنسان فيها إلا ما للثقب فى صفير الناى .

وقام إليها ، وماتت يده على معصمها . . جرّها معه . لا يزال محنى الظهر ، خطوته سريعة ، وأغرب شىء فيها أنها قصيرة . شىء خفى يشد قدميه الواحدة إلى الأخرى . .

وسترهما ظلام الغرفة .

* * *

تغيرت حياة جاسر . هو منذ عاد ينام إلى الضحى ، ويقضى سحابة النهار بدكان خليل . لم يزر أبو فودة . فغياهب السجن قطعت فيه عرقاً يربط الرجل بمنبته . وهو — بعد هذا السجن الطويل — عن العمل عزوف . يود لو تظل حياته كلها حرية .

ولكن نرجس أشعلته ، رده قربها إلى ماضيه ، وأزال عنه نقاهة السجن . وإذا به فى اليوم التالى لاجتماعهما يخرج من مسكنه مع الفجر ويترك البلد عن يساره . ويجدّ فى سيره كأنه

فى يوم من أيام شبابه . . يسرع كعادته كل صباح ليلحق المعدية. خمس عشرة سنة مرت كحلم ليلة ! ! الهوة التى فغرت فاها فى حياته لم تقو على زمن له من القفز ما يصل بين ضفتى أوسع الثغرات .

ليس فى الطريق مزارع ، وكل ما حوله أرض فضاء رملية تغوص فيها قدماه الثقيلتان، ويجاهد بهما — وهو مسرع — يساعدهما بحركة من كتفيه . . .

بعد برهة وقف ذاهلاً . . لم يبق بينه وبين النيل سوى خطوات قليلة ، مع أنه يذكر أنه كان يصل للنيل بعد سير طويل .

وقت شبابه كانت الموردة تقترب من البلد أو تبتعد عنها بمسافات لم يلحظها جاسر ، لا لأنه ليس فلاحاً تهمه القيصبة والشبر ، بل لطول مجاورته للنيل وتعوده على تصاريف هذا المخلوق العجيب ، كحارس الأسد : يسمع أخفت همس المتفرجين عن البقشيش، ولا تحس أذناه شيئاً إذا زأر الوحش من على كتفه . .

ولكنه فى هذا اليوم لم يتمالك نفسه من الاندهاش . زالت سطوة العادة وتحجر الفكرة أمام قوة النيل . فى خمس عشرة سنة أكل من بنى شقير مسافة رحيبة ، كان جاسر يمشيها فى أكثر

من نصف ساعة .

وأشرف على الموردة والشمس لما تشرق . على بعد « كوشة » جير تحترق ويظللها الدخان . . أمامه قلوع بعض المراكب يسمع ضوضاء الجالسين فيها . . ووقف جاسر على مرتفع من الجسر . للريح صفير ، وللنيل تحته دمدمة خفيفة . . هو فى عز فيضانه ، يطل عليه كالشبح ناشىء من طينه . الطبيعة سواء فى الاثنين . ليست الشهوة قاصرة على الحيّ . . كلاهما يرزح تحت عبء فورة واحدة . . .

فليس أدل على الشهوة من النيل وقت الفيضان . هو طول العام طفل نحيل تحمله مصر حرصاً على اليدين ، شفتاها على شفتيه ، من رحيق فمه تعيش . ينتهى العام وثدى مصر قد جف . فيه لهيب كله نداء للارتواء . وللطبيعة انقلابات لا مقياس لقوتها ، فلا يأتى الميعاد حتى تنتفض مصر . تحس الرشفة تنقلب قبلة حارة تنفجر بها شهوات حبشية تتجمع طول السنة . ويقفز الطفل من بين يديها فإذا هو عملاق : يد تشد شعرها ، ويد تهصر خصرها ، ثم يطويها تحته فتغيب . كساؤها من ماء طحينى . له فى وسط الوادى هدير ، وعلى ضفتيه رفرفة . ويرتوى فى جوف مصر كل شق ، وتحيا كل عين ، ويغور من البلاليص ماؤها العفن المدوّد .

لا ترى قوة النيل فى الدلتا . . هو لا يجد حرّيته إلا مع الحيضان ، فإذا تخطاها وراء القناطر شعر باللجام فى فمه . . الجسور بجانبيه الغمامةُ تحيط بعينى الفرس ، يركبه كل بلد شوطاً ويسلمه لمن بعده . . يقترب من البحر وهو شيخ مرت عليه آلاف السنين ، يجرى شوطاً واحداً لا يتغير حتى هد الملل والتعب قواه . تنازل عن نضاله مع الأرض ، فى مجراه المرسوم يجرى ، هو الذى طالما تقوى وشق ، أو تحايل ولف ، يخلق الجزائر ، ويبلع البحيرات ، تملأ حلقه سدود من كثيف النبات فلا يغص ، وتخدعه مستنقعات فى التيه نهايتها فلا يضل . .

كل هذا كذب . . فى الصعيد يثبت النيل أنه رغم كل هذا لا يزال شاباً مفتوناً بنفسه وبقوته .. ليست آلاف الدوامات إلا من دمه الفائ . له فى كل موردة يد تغازل الفتيات . بين كل حين وآخر تقتنص فريسة لا تشبع له نهماً . . للشواطىء منه عبث الجبار . . وها هو مع بنى شقير ، فى سنة يمنحها أرضاً خصبة ، وفى سنة يستّرد هديته ومعها أجرها مضاعفاً . فى خمس عشرة سنة أغار على أرضها يأكل منها كالمفجوع حتى اقتربت الموردة من البلد للدرجة التى أذهلت جاسر .

ولفح وجهه ريح رطيب ، فامتلأت رئتاه وزاد تنفسه عمقاً ، وفصل جسمه عن بهمة الليل بصيص من الضوء الأحمر يبزغ

من وراء الجبل . رمى له على الأرض ظلا طويلا ، وعلت قامته ، ووقف لحظة يحدق فى أبو فودة . ثم هبط حيث المراكب .

فى طريقه إلى المعدية ألقى جاسر السلام على رجلين جالسين على الأرض . ولما تبين أن أحدهما هو شعلان صاحى أحد مستأجرى محاجر الحكومة . كرّ راجعاً وجلس أمامهما . .

— « يا عم شعلان . أنا عاوز أرجع للشغل . خلينى وياك . أنت أحسن من غيرك وطيب .

— أمال أنت معدى لمين ؟

— أنا خارج لسه على باب الله . . الحمد لله اللى قابلتك .

— طيب روح النهارده اشتغل فى نمرة ٦ . ولما تشوف شغلك الحساب يجمع . أنت ما معكش عدة ؟ أنا عارف . قولهم هناك يدوك العدة اللى سابها الواد على » .

وقام جاسر يلحق المعدية فالتفت شعلان لزميله يقول :

— « دا حجار كويس ويعرف الشغل .

— مين ده ؟

— آه . . أنت صحيح ما تعرفوش ».

وبدأ شعلان يقص قصة جاسر . استمع لها عبد المسيح بهدوء . لا يلفظ بحرف . ولما انتهى أقبل على حجر صغير فى الأرض وأخذ يلعب به .

عبد المسيح — خفير المحجر النظامى — هو صاحب الطربوش الوحيد فى الجبل ، يرى فيه كالغريب الضال . جاء لوظيفته بعد أن ترك خدمة الجيش تواً . لم ير محجراً طول حياته ، ولم يعاشر حجاراً من قبل ، ورغم ذلك — ورغم أنه غريب عن البلد ، ودياناته تخالف أغلبية سكان الجبل — فإنه استطاع بعد وقت وجيز أن يفهم أسرار المحجر ، وأنواع الحجر ، ودقائق العمل ، وأشخاص الحجارة ، اللصوص منهم والأشراف ، بل عرف كيف يكسب صاحب كل محجر ، وكم يبلغ ربحه . يأتيهم مع الصباح المبكر فى يده البندقية ، يجول هنا وهناك فيفهم السرقات التى جرت فى غيابه من محاجر الحكومة . لم يشتك للمركز مرة واحدة ، بل تمكن أن يصل إلى غرضه . يضرب رجلا برجل ، ومصلحة بمصلحة ، فقلت حوادث السرقات وهدأ الجبل عن ذى قبل . وربطه مع العمال صداقة ، هى من جانبهم مشوبة باحترام لا يمنحونه إلا لمن يعلمون أن نفسه لا تقل عن نفوسهم صلابة . . وقال شعلان :

— « ما حبّش لما تسهّم .. قلت كام مرة قول اللى فى فكرك ولا تخبيش .

— « أخبى على إيه؟ أنت غلطت .. الراجل ده ما عدش يفلح ، رح يتعبك فى الشغل . خمستاشر سنة سجن ! مين عارف

ح يعلم الحجارة إيه من اللى اتعلمه هناك .

— انت عارف (الرى) مستعجلنى . وتو ما لقيته . . . »

تركه زميله وقام . . الحديث لم يعجبه .

* * *

تحايلت نرجس على الهرب من جاسر . فهى تخشى افتضاحها فى البلد ، وخسرانها أقوى ساتر لها : زوجاً غافلاً . على أن يوم السوق ثغرة فى تحصنها لا تستطيع سدّها . فمغامرات كل تاجرة تنتهى حتماً إلى عادة صلبة تدخل برنامج حياتها . فتؤديها بلا تفكير كأكلها وشربها .

فى منفلوط ، سوقاً بعد سوق ، لاحقها جاسر وهو هائج مغيظ . فليس أكثر تمزيقاً للقلب وبعثاً للغيرة من عشق امرأة تصد فى حين أنها مبذولة للكثير . وزاده تعلقاً بها أن ذهنه ، فى فورته الفجائية . وحد من هذه المرأة وعودة قواه ، شعوراً لا يقدم أحد شقيه إلا مع الآخر ، وأصبح كالجاموسة العتيدة يكاد يضرها اللبن فى ضرعها ولا تدرّ به إلا لحالب معين .

وجدها أمام بائع يعصر على صدره يدها ليلبسها «غوائش» زجاجية ضخمة مبرقشة . فجاء إلى جانبها ودفع لها الثمن . فلم تمانع .

— « إذا كان نفسك فى حاجة قوليلى . . ربنا مخنن علىّ دلوقتى ، وأشيتى معدن .

ـ يا جاسر سيبنى فى حالى ما تخربش علىّ . .

ـ أنت اللى ما تخربيش علىّ . . أخرتها أنا اللى ح أضيع عمرى عليك . . شوفى . . لو تكونى أنت مين ، ومهما عملت ، أنا مش ح أسيبك . فهمتى ؟ »

ظهرت الحيرة على وجهها ، فهى بعد تفريطها الأول بين أن تداوم أو تقاوم تخشى لسان جاسر ، وهو يعلم سرها ، أن يجرى باسمها فى أنحاء البلد . كل خوفها أن تشتهر سيرتها ، ولم تفكر لحظة فى زوجها . فاهتمامها بإسماعيل محى منذ أن ضاعت منه الإجارة ، وأصبح أجرياً بالطورية ، يقضى أكثر الأيام عاطلاً ، لا شغل له سوى النوم فوق الفرن . يوم وراء يوم وهو فى خمول لا يسأل إلا عن أكله . لا ينقصه إلا أن يتكلم ويقول إنه فاهم . ومواقق . . ما دامت من وراء سعيها ستنفق عليه .

ومتى هبط الزوج إلى هذه الدركة ، أصبح إصبعاً يشير لا درعاً يستر ، ولكنه ـ على الأقل ـ ينفع الآن حجه تهرب بها .

ـ « إنت عارف إسماعيل بارك فى البيت .

ـ إسماعيل مين دا اللى مالى عينك ؟ قولى إنتى اللى مش عاوزه » .

هل تقطع الخيط وتواجه الفضيحة ؟ لم يكن مقصدها إلاّ أن تطوّح جاسر :

— «أهو شفلك شغله فيه» .

ثم افترقا . . ولم تخط خطوتين حتى أشرق عليها إدراك غريب . كانت فلتة لسان ، ولكن هل فهمها بمعنى آخر ؟ وتملكها اضطراب شديد لم تعهده من قبل . وبدأت خطوتها تسرع على غفلة منها .

فليفرّ الاثنان معاً . . وماذا يهمها . . لفّت رأسها فجأة روح من عدم المبالاة و «ضرب الدنيا طبنجة» ، هى امرأة تتاجر بعرضها وجدت نفسها فى ركن .

ولكن البحراوية غير سهلة . . وليس كل تفكيرها سلبياً . . فى بعض الأحيان تقوم بنفسها نزعات من الشر لم تتح لها الظروف أن تتعرف مداها . . وكأنها غاظها أن يلعب بها ولا تساهم ، فإذا بها تكر راجعة تبحث عن جاسر ، لحقته فى الطريق ولمست كتفه .

— «إذا كان كده .. أحسن تعزل من المنامة اللى حدانا . . شوفلك حتة غيرها» .

وتلاقى النظران ثم ولت مسرعة .

وسار جاسر بتمهل فى خطوته .. كان غير واثق من فهمه ، فإذا بهذه اللمحة السريعة تبدد شكوكه . . وجعلته يدرك ، لا الذى تقصد نرجس بابتعاده عن جيرتها ، بل أنارت له طريقاً

واضحاً يسهل عليه بعد ذلك الوصول لنهايته . . . القروية هى المدبرة. وخريج السجون تبع !

وكان فى حاجة إلى التفكير فى هدوء . فأخذ طريقه إلى قهوة يعرفها فى نقطة المومسات . . وعلى دكة خشبية جلس ، تفوح فى الجو رائحة تخمر شديد من بوظة مجاورة ، وتصل إليه نغمات رقص على مزمار وطبلة ، وأمامه عدة نسوة يفترشن الأرض تحت ظل شجرة على حافة الجسر . .

ولكن جاسر ليس هنا . . ترك إسماعيل وأخذ يفكر فى نرجس . عند ما يحوزها لن تجد فيه زوجا « نعجة » كإسماعيل. فى أول ليالية سيسويها بضرب موجع ، لتفهم أنه من عينة أخرى لا تحتمل اللعب على الذقون . . سيحبسها فى الدار ويقفل عليها بالمفتاح . .

وشدت يده بغضب على جوزة التمبكاك.. وتكررت نفخاته ، يجاوبها الماء بكركرته ، وغاب فى تفكير . . على يديه دم رجل ، ولكنه لم يقتله إلا فى لحظة غضب دون أن يعى لنفسه. أما الآن ، بعد خمس عشرة سنة فى السجن ، فهو قادر على أن يصنع المصيدة ويستهوى فريسته إليها . . ولكن مشروعه يحتاج للصبر . سيروض نفسه عليه. قصة يذكرها الآن لأحد زملائه فى طره . . قتل له ابن فى ريعان شبابه فى جمعة طلبه للجهادية ، ولم يكن

لغريمه ذكر يثأر منه سوى صبي يلعب ، فصبر عليه ، إلى أن جاء ميعاد فرزه ، فرماه بالرصاص .

هذا هو الصبر .

* * *

وأثبتت الأيام أن عبد المسيح على حق . فالحيوية التي استيقظت في جاسر جعلته لا يستطيع الصبر على معيشة الحجاز ، ينكفئ على عمل واحد من الفجر إلى المغيب . وعلى مهل بدأ يقلل من عمله ، ويتداخل أكثر فأكثر في إدارة المحجر . يوماً يفرق بين عاملين ملتحمين ، ويوماً يحمر عينه لمراكبي يعاكسهم في الشحن . ولسابقة خبرته في المحجر ، وفي طرة ، لم تحب له نصيحة واحدة . ولم يمض زمن طويل حتى أصبح من جديد ، رغم غيابه ، مرجع العمال جميعاً ، يحترمونه وينصتون لرأيه .

وأغمض شعلان عن هذه الحركات عينه . هو جم المشاغل ، كثير التغيب عن المحجر ، ووجود رجل مثل جاسر يوفر عليه وقتا يضيع في سياسة منازعات عديدة عقدتها لا تحل إلا إذا جاء ورأى وحكم . وانتهى الأمر بجاسر إلى أن أصبح ريساً للمحجر نمرة ٦ .

في ليلة جلس جاسر في دكان خليل يتحدث بصوت مرتفع ، ويضاحك الجلاس ، ويطلب لهم على حسابه دوراً من الشاي . .

ولما جاءت الأكواب التفت إليهم يقول :

ـ «ياولاد باركولى .. النهاردة قريت الفاتحة فى الجبل مع حسين رمضان يجوزنى بنته ، حكاية زى الحدوتة . . أعمل إيه ؟ عاوز أجوز من يوم ما رجعت . رزق دلوقتى متسع والحمد لله.. ومن يوم ما (عزلت) عن ابن خالى إسماعيل لقبلى البلد، وأنا مش متهنى ع اللقمة ، عاوز لى مرة تخدمنى » . .

ولما ترك القهوة دار حديث الموجودين عنه . . كيف صار الآن فى غمرة يبعثر نقوده ، ويشترى قدر عرقى البلح ، ويجهز عليه فى يومين . .

ـ «والله يقوم بجميل إسماعيل الأول .. الراجل شوية شوية ح يسف التراب ، وأولى بقرش من قريبه . .

ـ عشان تصرفه البحراوية على كحلها ؟

ـ إزاى ؟ أنا سمعت أنه خده وياه للجبل وشاف له شغلة هناك . . .

ـ حقيقى . . امبارح شايفهم الاتنين معديين سوا . .

ـ إسماعيل من ساعة ما سافر للسلطة وساب طينه ، ماعدش يفلح . .

ـ صحيح . . هو يعرف إيه فى شغل الحجر . .»

وهذا ما قاله إسماعيل من قبل ، ولكن جاسر طمأنه وأفهمه

أنه لن يعمل إلا فى نقل بعض الأحجار من حافة الماء للمركب . بين الاثنين خطوات . سيكون معه يساعده ، ثلاثة قروش يوميته . .

وإسماعيل — على رأى بلدياته — فلاح خائب ، لا تربطه بالأرض ما يربط باقى الفلاحين ، يموتون ولا يفارقونها ، وساقه الجوع إلى الجبل مرغماً وراءه تحريض نرجس . .

— «ليه ما تروحش . . إنت مش راجل زى الرجالة ؟ »

سار إسماعيل إلى الموردة ونزل فى المعدية كسير القلب ، أمامه على الضفة الأخرى محجر أبو فودة غير واضح ، فلا تزال الشمس وراءه ، ولكن بعض الأصوات يقذفها الهواء متفرقة من الجبل إلى أذنيه . . كلها وقع الحديد على الحجر . . ولم تتوسط المعدية النيل حتى استعاذ المراكبى من الريح . . وطلب من الله المعونة لأصحاب المراكب الذين سيسوقهم سوء الحظ للمرور فى هذا اليوم . .

لا يجهل مراكبى واحد يجوب الصعيد اسم أبو فودة . . إذا دنا منه توترت أعصابه وزاد صراخه ، وهمّ إلى قلوعه يربطها . . فإذا جاوزه حمد الله وجلس يغنى إن كان شاباً ، أو يقضم من لقمة و « يبربش » بعينيه فى نور النهار ، إن كان شيخاً . . لا مأمن لأبو فودة ، تحس المراكب أمامه أن الجبل واقف لها

بالمرصاد كالشيطان ، ينفخ عليها ريحاً خبيثة تملأ القلوع وتميلها للماء . . بعضهم يعلل السبب بأن الهواء يضرب الجبل فيرتد فى دوامة خفية تهبط على القلوع فتصرعها بحراً . . ولكن المراكبية كلهم يعتقدون أن فى أبو فودة شيئاً مرصوداً من القدم يدفع بالمراكب لحتفها ، لا شأن للهواء أو الريح . فكم من مركب قاربته وقلوعها ترفرف ، ليس فى الجو نسمة ، فإذا جاءت تحته انتفخ القلع وترنح المركب من ضربة خفية ، وانقلب ظهرها فوق الماء . .

وجلس إسماعيل يستمع لهذه الأحاديث فتملأ قلبه سخطاً ، وحمل همّ المعدية تنتظره كل يوم صباحاً ومساء . ثم جاوزت المعدية وسط النيل ، وبدأت الشمس تعلو رأس الجبل وتلقى أشعتها على سفحه المواجه للنيل ، فظهر الحجر أبيض ناصع اللون يرتد عنه الضوء فى بهرة ووهج . . وتبين إسماعيل مصدر الأصوات التى وصلته وهو على الشاطىء . . كل الجبل مرشوق برجال معلقين على سفحه مربوطين من وسطهم بالحبال . . فى يدهم حديد يضربون به الجبل ، ويرتد الصدى من كل النواحى ، بعضهم يغنى وهو يدق ، وبعضهم منهمك فى عمله ، لا تتأخر ضربة عن ميعادها الموزون .

هى أول مرة يعدى فيها . كان يظن طول عمره أن الجبل

بعيد عن الماء بمسافة . ولكنه هذه المرة رأى كيف يلطم الماء الحجر لطماً . بعض الأحجار المتناثرة غرق فى الماء لنصفها . . كيف ينبت من الماء مثل هذا الصخر ؟ قد يبدو كأن النيل راكع أمام أبو فودة ينسل له قدميه . ولكن صدمة التيار يضرب الحجر ، عداوة صريحة بين القوتين . . النزاع طويل . . منذ القدم ، فليس الجبل من طبيعة شواطىء الوادى .

. . عناصر من الطبيعة متكافئة . ينسل من بينها مخلوق ضئيل . إذا وقف على سفح الجبل تبينت حقارته ، ولكنه الأقوى ، يركب ظهر أحد الخصمين ويعلو هامة الثانى . بيده من الحديد والنار ما نبت فى فروع الجبل . . يقطع من جسمه كل يوم ولا تتلىء عينه حتى أصبح الجبل كجاموسة الفلاح ، من طول جوعها ، بارزة العظام على الجنبين ، بينهما بطن مهضومة .

وفجأة دوى فى الجو صوت مرتفع .

— وردة . . . وردة . . .

تناثرت شلة العمال الذين ينقلون الأحجار أمام الموردة ، ويجرى إسماعيل مرتبكاً وراءهم . وخطف بصره وسط السفح لهيب من نار وسط دخان أسود ، يعقبه سحاب أبيض . . وفى اللحظة عينها ملأ أذنيه دوى مكتوم هلع له قلبه ، وتدفقت أكوام الحجر كالمطر ، تتدحرج . . تتدحرج . . الكبير منها

يصل إلى الماء . . والصغير قد يقف فى منتصف الطريق .

والتفت إسماعيل يسأل أحد الحجارة وهو يشير إلى حجر كبير استقر على بعد من الموردة :

ـ « وداح تشيلوه ازاى ؟ »

فأجابه العامل وهو يضحك .

ـ « ما تخافش . . دا ح نكسره باللغم كام حته . . »

شعر من هذه الضحكة أنه سيعيش غريباً عن الجبل والعمال ، كلهم قساة لا شهوة لهم فى التحدث وقت الشغل ، وأغرب شىء فيهم أنهم من سحنة واحدة لا يفارقها الغبار . . أيديهم غليظة ، ظهورهم محنية ، هل تفرعوا جميعاً من أصل واحد ؟ أم هو الجبل لا يستهوى إلا طرازاً خاصاً ؟

* * *

واستمر إسماعيل فى نقل الحجارة أياماً متعددة حتى ألف الجبل والعمال ، واعتادت أذنه دوى اللغم وترجيع الصدى ، وأصبح يفهم الألفاظ التى يتبادلها زملاؤه ، ولكنه ظل رغم هذا فى مرتبة الصبيان أجراً ، لا يتعدى عمله نقل الحجارة من مكانه إلى مراكب الشحن .

فى فترة من فترات سخطه ، جاءه جاسر يفهمه أنه لو كان غيره مكانه لتشجع قليلا وترك هذا العمل البسيط إلى ما هو

أربح . . وأخذه إلى سفح الجبل وأراه علامة . . هنا يراد فتح ثقب للغم جديد . . ما عليه إلا أن يكون معه المدق — عود غليظ من الحديد رأسه مدببة ، والملعقة — سيخ طويل فى نهايته كف صغير لتنظيف الثقوب — ويدق فى الحجر إلى أن يستحدث به ثقباً مستقيما طوله نصف متر تقريباً . . ليس يطلب منه شيء أكثر من هذا . . وعلى جاسر بعد ذلك ملؤه بالبارود وكبسه . وإطلاق النار فيه .

لم يفلح إسماعيل فى أول الأمر فى إحداث الثقب . وعدل به جاسر عن هذا الموضع إلى غيره ، ولكنه — بعد أيام — سار فى عمله وأخذ يمر على الأمكنة التى يجد فيها العلامة ويشتغل . . هو إلى اليوم يعمل واقفاً على رجليه . . بعد أيام وجد نفسه مضطراً لفتح ثقب فى علامة تحت نتوء وسط سفح الجبل لا يستطيع الوصول إليه . وفهم لماذا يضطر العمال لربط أنفسهم فى حبال تتدلى من صخور بارزة فى أعلى الجبل . . ليهبطوا إلى أمكنة لا يتسنى لهم الصعود إليها . عن يسار المحجر بمسافة غير قصيرة ، طريق يؤدى إلى رأس الجبل . . من هذا الطريق يصلون للصخور البارزة ، ويدلى الحجار الحبل بعد عقد طرفه بأحد الصخور ، ثم يهبط عليه حتى يصل لعلامته ، فيربط حزاماً فى وسطه بالحبل ويظل حرّ اليدين .

وتعلق إسماعيل بالحبل مراراً ، وجاسر يقود خطاه . . وأصبح لا يخشى موقفه بين السماء والنيل .

* * *

فى النهار أبو فودة حركة وفرقعة ودوى ، وفى الليل سكون وهواء يصفر . . فى ليلة مظلمة فى أوائل الشهر رأى أبو فودة جاسراً يعود إليه منفرداً فى قارب صغير . . ثم يتحسس خطاه ويقفز من حجر إلى حجر يحاول أن يصل لرأس الجبل من الطريق المرسوم ، ولكن رجليه — دائماً رجلاه ! — عاجزتان ، وحركتهما بطيئة ، فهو يسند نفسه كل حين وآخر بيده ، ويقف ينصت . فى لحظة خيل إليه أن الظلال حواله تتحرك إذا ضربها الهواء . . وتمالك نفسه ، يسير محنىّ الظهر ، تنفسه مسموع . لقيه على رأس الجبل هواء بارد ، يهب على وجهه فلا يؤثر فى الحمى التى تتملك جسمه ، العرق يتصبب من جبينه ، ولسانه جاف . .

ووقف جاسر عند صخرة ناتئة حولها حبل معقود ، ذيله الطويل يتدلى إلى سفح الجبل يكاد يصل إلى الماء . . تلمس موضع العقدة وشرع يزحزح الحبل إلى أن جاءت أمامه . . وأخذ يعمل فيها يديه . . ثم أسنانه ، حتى فكها . .

كل الحجارة يفهمون فى الحبال وطرق عقدها . . وكان

جاسر — أيام شبابه — أمهر العمال فى اصطناع العقد ، له عقدة يحدثها بين حبلين فى غمضة عين ، ومع ذلك يكفى أن يقع على طرفها ضغط يسير حتى تقوى وتصبح كوثاق الحديد .

ليس هذا كل ما يعرفه . . بل كان ماهراً أيضاً فى اصطناع عقدة تظهر ، لقوية ضخمة ، متداخلة ، لا يشك من يراها أنها تقاوم القناطير ، ثم يطلب من أحد الواقفين أن يجذب طرف الحبل على مهل ، فإذا بها تتفكك شيئاً فشيئاً ، وإذا بها أكبر الخدع .

أعاد جاسر لف الحبل على الصخرة ، وجلس بيدين مرتعشتين يعقد الطرفين عقدة لن تدهش المتفرجين هذه المرة ، بل ستستند عليها روح معلقة بين السماء والماء ، وسط أكوام الحجارة التى لا تلين ، إذا سقط عليها الجسم تلقفته بأسنانها ، تمزق أوصاله ، وتهشم رأسه فتاتاً . .

وعاد جاسر بقاربه وربطه حيث كان فى مؤخرة مركب كبيرة محملة قللا وبلاليص ، لحقها الليل أمام بنى شقير ، فركنت فى الموردة ، وكان أهلها فى نوم عميق . .

لم يغمض له جفن طول الليل . . جسمه يرتعش رعشة مكتومة . . الكلاب تعوى حواه ، والديكة أذان كله نداء وتنبيه .

فى الصباح ، بعد ميعاده ، خرج من منزله لفاً رأسه وبعظم

وجهه فى لاسة من الصوف ، يقول لكل من يسأله — وهو فى خطو المشلول — أنه مريض . بين جنبيه هوّة إذا أطلت عليها نفسه لم تر إلا خوفاً ورعباً يحدقان فيها . هو مريض ضعيف ، ولكنه قبل كل شىء يريد من ربطة اللاسة أن يخفى وجهه ويستر اصفراره . واستقل المعدية معه عدد من الحجارة المتأخرين ، جلس بينهم متخاذلا ذاهلا عما حوله . . المناظر التى تبصرها عيناه تقع على مخ صدىء ، فلا يفهم منها شيئاً . . وبدأ أبو فودة يتضح . كل يوم له ألف لسان من معول حديد يصدم به الحجر ، ولكنه الآن أخرس واجم . . وزاد من تسائل ركاب المعدية أنهم رأوا عند ما اقتربوا ، جمعاً من الحجارة يجرى من أعلا الجبل لأسفله ، بعضهم يحرك ذراعيه ، وبعضهم يصرخ كالقرويين جميعاً إذا أرادوا إسماع صوتهم لبعيد ، فى صرخة طويلة ممدوجة تنتهى بعويل .

وقفز الجمع ، فاندس بينهم جاسر . تلقفهم العمال بالخبر . . إسماعيل جاء كعادته ، وطلع للجبل وهبط على الحبل ليبدأ عمله ، وفجأة — وبدون سبب واضح — رأوه يهوى . . صرخ مرة واحدة ، ثم لم ينطق . . . رقراق من الدم يسيل من طرف الفم على خده . . عين مسودة حاجبها مجروح ، وعين كبيرة جاحظة . . مرّ الرعب عليها وهو هارب فتلقفته منها يد الموت . . فهو فيها أسير مقيم . .

وارتمى جاسر على الجثة يحضنها ويبكى .

— «آه . . آه يا ابن خالى » .

ونقلت الجثة — فى المعدية ! — إلى بنى شقير . يألف النيل منذ الفراعنة ترجح الميت من أولاده على ظهره . . فى الغرب المنازل . وفى الشرق القبور . . ونزهته الوداع !

ووصل إلى عبد المسيح خبر موت إسماعيل . فأسرع إلى محل الحادثة ، وكان الحبل لا يزال موجوداً فأخذه بين يديه يقلب فيه . . يستمع لحديث حجار واقف وراءه .

— « هوّا لازم ما عرفش يعقد الحبل كويس . . ماتبتهاش بالحبل » .

فقام عبد المسيح ينصرف . . لم يلتفت للحجار . . وكأنه يهمس لنفسه لا ليسمعه قوله :

— « له رب . . . »

* * *

ومرت أيام طويلة . . ورأى الشقراوية كيف يطلب جاسر من حسين رمضان أن يحله من « فاتحة » ابنته . لأنه لا يجد منداً من أن يتزوج من أرملة ابن خاله . . المصيبة مصيبتها . . هى بحراوية . . فارقت بلدها وأهلها . . وليس لها عائل فى بنى شقير . وضمهما منزل واحد . . فى لذة لا يعرفها أكثر الناس .

هى عندهم شيء يأتى ويذهب ، وهى فى نرجس وجاسر عنصر مقيم .. وارتوى جسمه على الغذاء الجديد .. فى أول الأمر أصابه ضعف شديد ، ثم انقلب إلى سمنة ، اختفت معها عظمتا خده ، وانتفخ شدقاه ، وظهر له كرش كبير . . وزاد إقباله على عرق البلح ، وكثرت فى الجبل حدته ، وبدأ العمال يتذمرون من محاولته ، فى غير مناسبة ، أن يتدخّل فى مصالحهم والسيطرة عليهم ، وهو كسل لا يقوم بعمل .

مرّ عليهم شعلان ذات يوم وهو فى المحجر ، وتعمد أمام العمال جميعاً أن يؤنبه على بعض إهماله . . وهدّده بإخراجه من عمله إن لم يعتبر . . لم يجاوبه جاسر إلا بكلمات متقطعة . . ثم انتظر حتى اختفى الرجل وعاد إلى عمله . . هو جالس عند حافة الماء على حجر ضخم فى وسطه ثقب عميق ، بجانبه كيس بارود يتناول منه بحذر ويسكبه فى الثقب . . ثم ضحك :

ـ « يعنى عم شعلان فاكر رزق فى إيده؟ يعجبه أسيب الشغل وأروح نمرة ٩ ؟ أهم عاوزينى هناك ..»

وامتلأ الثقب إلى ثلثه . . فجاء جاسر بالفتيل وهو عصا من جريد مشبعة بمعجون البريد ، وركزه فى الثقب وسط كوم البارود . وتناول من تراب ناعم بجانبه حفنة وألقاها حول الفتيلة .

ـ «انت ياواد يا علوان . . دقيت الحجر ده كويس؟ أوع

يكون فيه حصوه ؟» .

جاءه الجواب من عامل معلق .

— « كله كويس . . أهو قدامك شوفه » .

ومد جاسر يده يكبس التراب حول الفتيلة . . ثم ترك الشغل ووقف : —

— « يبقى بشوف عم شعلان لما أسيبه الشغل يمشى ازاى ؟» ووصل التراب إلى حافة الحجر ، فأخذ جاسر عموداً قصيراً من الحديد وبدأ يكبس التراب بهدوء وبطء . . ثم تركه وعاد لحديثه من جديد . .

— « أنا ح أخاف من إيه ؟ مش عارف إن نص عمرى راح فى السجن ؟ دنا رد اللومان » .

وضغط بالعمود مرات قليلة حول الفتيلة البارزة :

— « أوعوا بقا . . ورده . . ورده .. ورده يا واد يا محمود ، ورده يا حسين ، سيب الشغل دلوقتى يا عوض» . . وأخرج من جيبه علبة كبريت . . وانحنى ظهره فوق الحجر . . ومال بوجهه على الفتيلة . . ثم أشعل العود ولمس بالنار عصا الجريد . . لم يسر اللهب بها . . لا يزال العود الكبريت مشتعلا فى يده . . عيناه على رأس الفتيلة تراقبها . . واقتربت يده بالنار مرة أخرى . وفجأة قذف الحجر إلى وجهه فى دوى كزمجرة الوحش ترابا ولهيباً

ودخاناً وباروداً محترقاً وغير محترق . . اختفى وجهه لحظة وسط الحمم . . ثم انقشع السحاب فإذا هو ملقى على الأرض . .

تجمع العمال عليه . . ليست الحادثة الأولى فى محجر أبو فودة . كم عامل قبله قاده سوء الحظ إلى إشعال لغم منفس . وفقد روحه . . أو فقد شعره وجلده ، وسكن البارود غير المحترق فى وجه فى علامات أشبه بالجدرى . . وكم عامل تفحم أنفه . . ولكن جاسر فقد عينيه . . .

* * *

يعيش جاسر من إحسان الناس . . غير أنه لا يستطيع الابتعاد عن أبو فودة . فى الصباح المبكر يكون أول من يصل إلى المعدية . . إذا سمع صوت الحجارة مقبلين ، قلب يده فى الهواء يريد أن يتشبث بواحد منهم . . كل يوم يعدى إلى المحجر . يرقد طول النهار تحت سفح الجبل يستمع لأصوات المعاول ولغم البارود . . لا يزال لسانه « زفرا » ، بل ربما زادت شتائمه ولعناته . . يقبل لقمة « البتاو » تعطى إليه ، لا يحمد ولا يشكر . . هو زميل احتمله الحجارة بينهم فى عطف غير طائش أو ثرثار . . نصفه كرم ونصفه قسوة . كل من يحل بالمحجر يأسره منظر هذا الرجل السمين ، وجهه مبقع ، حواجبه من جلد وجروح ، عيناه كعينى البوم إذا أغمضتهما . .

ووجد جاسر فى العصا ما يتوكأ عليه ويساعده فى خطوه . . من كان يظن أن خطوة جاسر المترنحة وقدميه الثقيلتين نبؤة عجيبة بعماه؟! مشيته هى هى لم تتغير .. ولكنها لا تستثير الآن فيمن يراه دهشة أو عجباً . . فليس أمامه إلا أعمى يتحسس لقدميه موضعاً . . من أين له أن يعلم أن هذه المشية «دمغة» لا تزول ، إرث سجن طويل عاش فيه جاسر تربط رجليه الواحدة بالأخرى سلسلة قصيرة . . خمس عشرة سنة تتدفأ من حرارته . . هى عرق فى جسمه . . يكاد يجرى فيها دمه !

رقم الإيداع		١٩٨٦ / ٥٣٨٢
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٧٩٨-٠	ISBN

١ / ٨٦ / ٦٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

ص
٦٠

٢/٤٠١٧٣٤